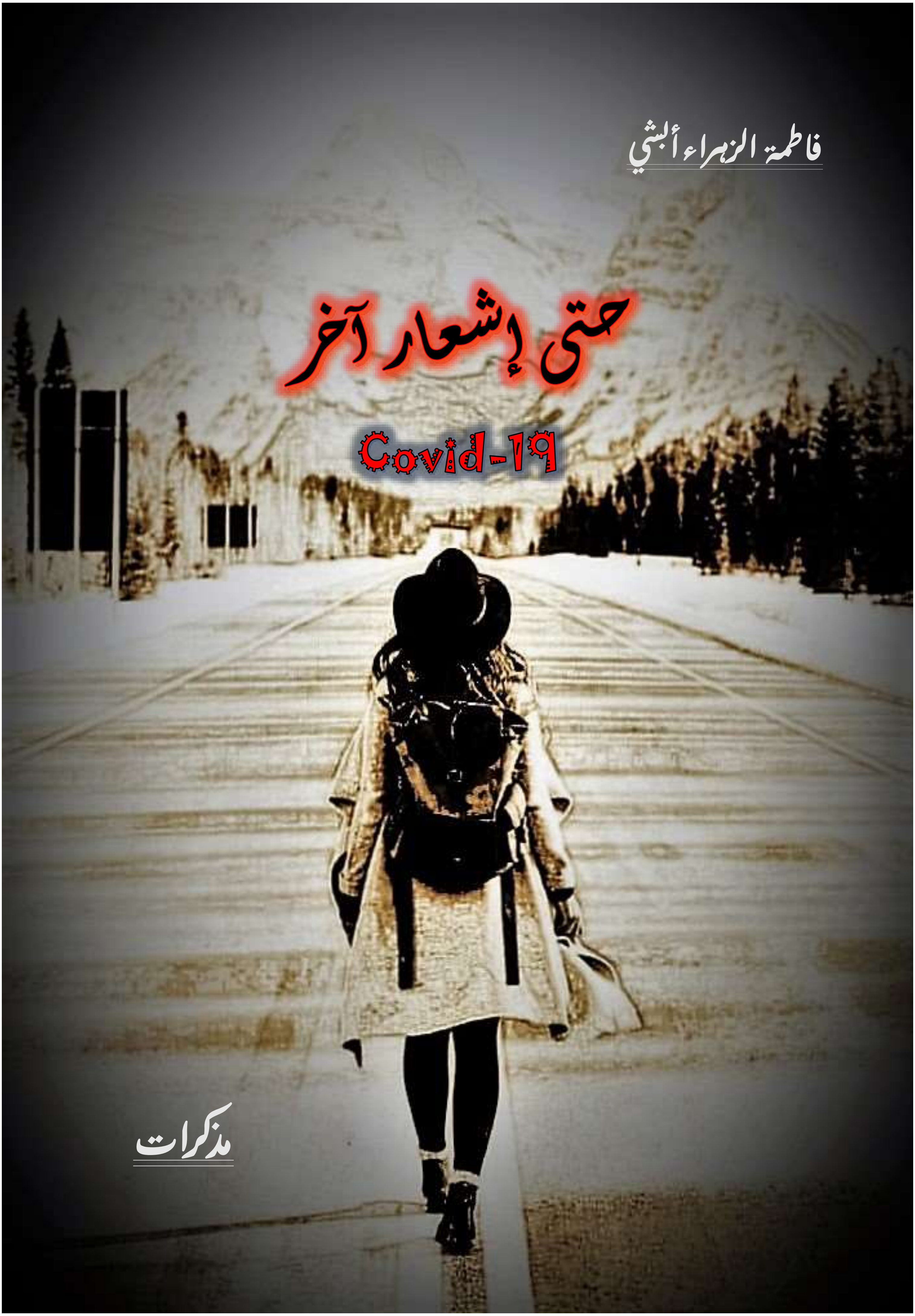
فاطمة الزهراء أبلشي
حتى إشعار آخر
Covid-19
مذكرات

إهــــــــداء

إلـى التي تركتني وحيدة خلفها مستسلمة للنهاية..

إلى من تركتنا على عجل مودعة إيانا بنظرة عابرة..

إلى خالتي الغالية..

من الأرض إلى أعالي السماء..

فاطمة الزهراء ألبشي

اليوم..

كمن يحمل قلادة سوء الحظ أو سوء نية، لا أدري...
لكنها عبثية الكتابة، تلك العبثية التي تشبه في سطوتها عبثية الموت المتربص بالحياة...
أجل إنه ذاك الذي يغتالنا في كل دقيقة ألف مرة، يختبئ في سطورنا البريئة لتديننا بعد ذلك محكمة الحياة الأبدية، هكذا يلاعبنا الموت كلما تحدثنا إليه في غفلة منا.. هكذا يمازحنا مصوبا بندقيته إلينا ليرمي الرصاصة على أناس مقربين منا، وكأنه يخطئنا ليصيبنا... !

وأتساءل: لما نكثر الحديث عنه قبل موعده بقلم ونصف؟ ولما انتابتني تلك الرغبة الجارفة في منح فرصة اللقاح بين سواد الحبر وبياض الورق... !

كيف لم أنتبه للفخ الذي كان يذهب بهم صوب حتفهم مستغلا غيابنا والعجز، تماما في يوم للذاكرة...؟ !

من قال أن الموت لا يجيد اختيار عناوينه ومواعيده؟

أكيد يكذب... !

ومن قال أنه لا وجود لأناس يعودون من النهاية ليباركوا بداية جديدة، أولئك من تسحبهم الحياة ليقفوا على حافة الكون، ثم ينفجرون في وجهها عائدين من حيث ذهبوا، أو من حيث جرفهم نهر التجربة.. تجربة العذاب الأخير..

هم لن يقبلوا ذهابنا معهم كما نحن لن نقبل ذلك إن كنا مكانهم، لدى يكون القرار متطرفا حد الجنون بين الاستسلام للطبيعة أو خلق المفارقة العظمى.. !

شراسة الموقف تتطلب "مائة عام من العزلة"، لكنهم ليسوا ممن ينتظرون امتناع المطر كي يموتوا، فالموت "لا يعني لنا شيئا يكون فلا نكون.. "، وحدها الحياة تفزع فتهرب منا.. لنا، و وحدها النهاية تراقبنا من بعيد، تختارنا واحدا.. واحدا لنتعرى أمامها من قناع اللامبالاة، لتقطع تلك العلاقة الحميمية التي تجمعنا والتناقضات، وكأننا نحلها مرة لتعود إلينا مشتاقة بأبعاد جديدة، والقدر الذكي يشاهد ذلك و"يسقط على قفاه من الضحك".

الغربة تتسكع في الأفق.. هكذا في منفاها الوحيد نتنفسها بالغرفة، بالإبريق، بالقصيدة، كرمسيس المومياء الذي نجا من عقوبة السماء مرتين، وسافر إلي باريس دون جواز أو تذكرة.. جثة هامدة..

- ترى، لما لا يسمح للأحياء بالسفر..؟
- الجثث الطرية اليافعة يخافونها، فهي تحمل بين ضلوعها أحلاما، حلم الطفولة البريء، كسرة الخبز، حبة الزيتون، حفنة التراب، هؤلاء لا تقبل جثتهم.

جررت ذيول الخيبة مغادرة، اقتحمت المدينة الضائعة، ضحكت لحالي وحملت ما تبقى من الأمل وأكملت المسار وأنا أسترجع ما علق بذهني من التفاصيل الصغيرة.

يا إلهي، عيناي تؤلمانني سأتوقف عند هذا الحد، لا أستطيع الاستمرار أكثر في استعمال الحاسوب للكتابة. خمسة وأربعون يوما من الحجر الصحي داخل البيت، خمسة وأربعون يوما أستيقظ باكرا لا لشيء، لا داعي لتحضير الفطور، وجبة أتناولها وأنا أداعب الفنجان، باكرا أستيقظ وحدي حيث لا سائل..

- أسألني: كيف حالك يا فاطمة؟
- أجيبني: أحاول أن أكون بخير رغم الأرق اللعين.
- أسألني مجددا: ماذا تفعلين الآن؟
- أجيبني: أنسج خيوط الذكرى وألاعب طيفا يزورني كل صباح وكل مساء.. !

خمسة وأربعون يوما ونحن نشاهد كل شيء ينهار، روما التي عودتنا على لمستها الخاصة في تحضير المعكرونة والبيتزا، تقف على حافة الكون تودع العالم في يوم ماطر على ألحان "بيلا تشاو" معلنة استسلامها والعجز، باريس عاصمة العطر والعشق شاحبة تندب حظها العاثر حائرة متسائلة عن الحلول للأزمة بين يدي أبناء إفريقيا، مدريد حيث يقام أقوى ديربي لكرة القدم في العالم وأكثرهم مشاهدة وتتبعا، تبكي شيوخها عزاء وتتخلى عنهم واحدا واحدا. ببساطة العالم الذي يسبقنا بأسابيع فقط من الإصابة والحجر يحتضر.

وماذا عنا؟ نراقب سفرنا عبر الزمن دون الحاجة إلى كبسولة أو كرسي حلاق يحول جزيئات الجسم إلى طاقة، ليرسلها بسرعة تفوق سرعة الضوء إلى المستقبل، طبعا كما عودونا في أفلام الخيال العلمي، نحن فقط ننظر إلى مستقبلنا فيهم، ونتساءل أي طريق سنسلك؟ عدد الإصابات يتزايد يوما بعد يوم، فهل سنسير على الدرب لنعلن استسلامنا بعد أسابيع كما فعلت روما؟ ترى أي أغنية سنودع بها العالم نحن الفقراء؟ أم أن مناعتنا ستعلن تمردها لتحدث المعجزة؟ !

مهلا.. لنتوقف هنا، لما لا نعود خطوات إلى البداية بحثا عن الإجابة بينما نترك الموت خلفنا هنا الآن يبحث عن ضحية.. !

حتى إشعار آخر

انشطار

قبل أشهر..

كانون الأول (ديسمبر)2019

عادة كان الجميع يستقبل العام الجديد محتفلا ومودعا، نستقبل العام الجديد آملين في أن يكون عاما أكثر تطورا وسعادة، ونودع عاما مضى عند 00:00 من منتصف الليل، ومعه نودع كل ما عشناه مع هذا الرقم، محتفظين بما نراه أوقات فرح وابتسامة، متحايلين على الذاكرة بالتناسي لما يوقظ فينا الألم والرغبة في البكاء. وها نحن الآن نقف على عتبة التاريخ لنطبق ذات القاعدة المبتذلة.

- نعم جميعنا ظننا هذا..

استيقظناعلى صوت منبه يكسر طبلة الأذن، أمال تحضر نفسها لتذهب في زيارة لزوجها وأبنائها نهاية الأسبوع، ربيعة هي الأخرى تنوي زيارة أمها التي اشتاقت لها كثيرا، أما أنا فلم أتخذ أي قرار، حائرة بين زيارة والدي وبين البقاء مرابطة في مقر العمل، أملأ المذكرة اليومية وأحضر الجذاذات، بالإضافة إلى القيام ببعض الأعمال المنزلية. حسنا، الساعة تشير إلى الثامنة وخمس وعشرين دقيقة، علينا جميعا الالتحاق بالأقسام، كما يقولون "الواجب ينادي"، لكن مهلا لم أطلع بعد على صفحتي الخاصة بـ"فايس بوك"، فكرت قليلا ثم ألغيت الفكرة، أخذت حقيبتي ومعطفي، والتحقت بالقسم.

- أسمعت آخر الأخبار؟
- كلا، ما الذي حدث؟
- يقال أن هناك فيروس قد ظهر في الصين.
- كيف ذلك؟
- لا أدري هذا كل ما توصلت به حتى الآن.
- حسنا، لابأس قد تكون مجرد إشاعة، وحتى إن كان الخبر صحيحا فالصين بلد التطور والعلم ستجد حلا أكيد لتعالج مواطنيها.

هكذا كان الحوار عصر ذلك اليوم بيني وبين صديقي حميد على الصفحة، لم أعط الأمر اهتماما كبيرا، في كل يوم نسمع عن أمراض ووفيات وعلاجات مختلفة في أنحاء العالم، ما الجديد إذن في الموضوع؟ لا شيء. ارتديت معطفي لأغادر المنزل دون وجهة محددة، تعودت على ذلك مع كل من أمال وربيعة، نستغل مساء كل يوم لا نذهب فيه للعمل لنترك لأقدامنا حق تقرير المصير، هي من تختار بكل شفافية بين الذهاب في اتجاه الأعلى لنزور دكان الخضر والفواكه الذي يبعد عنا نصف ساعة سيرا، وبين الذهاب في اتجاه الأسفل لنزور دكان المواد الغذائية المصنعة، لا يمين في طريقنا هذه ولا يسار هناك فقط اتجاهين اثنين أعلى أو أسفل، هكذا نحاول قتل الوقت قبل أن يقتلنا بسيفه القاطع منذ أن التحقنا للعمل بمركزية م.م أهل مولة هذا العام، أما العامين السابقين فكانا مختلفين تماما.

أذكر عندما أمسكت بورقة تعييني بداية السنة الدراسية 2017، قرأتها حرفا فحرفا، سألت عن المكان وكيف يمكنني الوصول إليه، ثم قررت و والدي الذهاب قبل موعد الاجتماع بيوم كامل، لم نكن نعرف أي شخص هناك، كما لا نعرف أي شيء عن هذه القرية، لنقل أنها كانت خطوة شجاعة منا وفقط، وصلنا إلى هناك حوالي الخامسة مساء، توقف (الخطاف) وخاطبنا مشيرا إلى بناية صغيرة: "هذه هي مركزية أهل مولة"، نزلنا من السيارة، كنت أنظر يمينا ويسارا، أشجار زيتون هنا وهناك ولا أحد، اتجهنا إلى صخرة على طرف أحد الممرات التي لا أعرف إلى أين تؤدي، جلسنا قليلا نستريح ونفكر فيما سنفعله هذه الليلة، لن أنكر أنني أحسست في تلك اللحظة وكأننا سنقدم حلقة من حلقات برنامج "من أجل البقاء لـ "بيل جريلز"، فجأة مر بنا رجل أربعيني، فاتجه إليه والدي ليستقي منه بعض المعلومات عن المكان، وما هي إلا دقائق حتى عاد إلي يخبرني أننا سنبيث الليلة مع عائلته، شكرته بدوري على هذه الالتفاتة الطيبة، ثم سرنا معه إلى منزله، رحبت بنا والدته المسنة وأخته الصغرى ترحيبا كبيرا، وبتنا الليلة نصفها نستمع لقصص من حياة سكان القرية. لقد كانوا أناسا طيبين جدا، أصروا على مساعدتنا طيلة تلك الفترة، كما رافقنا أحد أبنائهم إلى المؤسسة حيث تعرفت على مديرها آنذاك وعلى بقية الأساتذة، وظل ينتظر مع والدي إلى أن انتهينا، وما إن أخبرته أنني سأشتغل عامي الأول بإحدى الفرعيات التابعة للمؤسسة المركزية حتى سارع في إجراء اتصالات من أجل أن أحصل على غرفة للكراء هناك، لكنني اقترحت أن نزورها لأتعرفها. كانت الفرعية المسماة "العواودة" تبعد حوالي 45 دقيقة سيرا، وبالرغم من أنني كنت متعبة جدا إلا أنني قررت الذهاب إليها وانتهى، سرنا بخطى ثابتة مسافة طويلة قبل أن نصل. وها أنا أقف أمام ثلاثة أقسام أحدها مغلق لا يصلح لشيء، أما الآخرين فهما في فوضى عارمة، في هذه الأثناء كانت الأستاذة ربيعة منغمسة في تنظيم السكن الوظيفي وتعيد ترتيب حاجياتها، ربيعة لم تكن من الملتحقين الجدد لأنها التحقت بالمؤسسة قبلنا بسنة دراسية، لهذا من حقها أن تتخذ السكن الوظيفي سكنا لها، و لطيبتها قررت أن تتقاسمه مع أمال التي عينت معي بنفس الفرعية، أما أنا فارتأيت حينها إلى أن أكتري غرفة بمنزل قريب منهما، منزل "الخالة فاطمة"، تلك المرأة العجوز التي لم تتردد أبدا في فتح باب منزلها لي ولوالدي.

كان من الصعب على أمال أن تتقبل هذا الوضع الجديد والغريب عليها، دخلت في حالة صدمة، حتى أنها في فترة ضغط كانت على وشك تقديم استقالتها والتخلي التام عن منصبها، لكن ربيعة تدخلت في الدقيقة التسعين لتقلب الموازين وتقنعها بالتريث، في الجانب الآخر كنت أقضي معظم وقتي في إعادة كتابة المذكرة اليومية في كل مرة يزورنا فيها المدير، لأنه وفي كل مرة كان يقدم لي ملاحظة ويصر على أن أعيد تنظيمها وفقا لملاحظته تلك، وعند انتهائي من العقوبة كنت أجلس في الهواء الطلق أحاول ترتيب أفكاري المبعثرة، والنظر إلى كل هذه الظروف القاسية من وجهة إيجابية حتى أتقبلها بحكمة. مرت السنة الأولى لنلتحق نحن الثلاث إلى المؤسسة المركزية في الموسم الدراسي سنة 2018، كانت خطوة مهمة جدا لنا ومشجعة أكثر لنستمر في ظل كل ما مر بنا من أحداث قاسية ومدمرة لنفسيتنا طوال السنة السابقة.

- أين ذهبت؟ لما هذا الصمت؟
- كنت أتساءل ماذا لو لم نلتحق بالمركزية السنة الماضية.
- لا أعلم ولكن على الأرجح كنا سنحتاج جميعا لطبيب نفسي.

أيقظتني أمال بسؤالها من عمق الذاكرة لتعيدني إلى قلب الحاضر في طريق عودتنا بعد أن تمشينا قليلا أملا في تجاوز الملل القاتل.

- كيف تنوين قضاء العطلة؟ سألت أمال
- في البيت لا أكثر، وقد أخرج لبعض الوقت مع أسماء للتنزه أو لتناول وجبة خفيفة. وماذا عنك؟
- سأقضي معظم الوقت مع طفلي، فهما ينتظرانني بفارغ الصبر. أجابت
- وماذا عنك ربيعة؟
- سأزور والدتي أولا، وأشرع في التحضير لننتقل معا إلى منزلي الجديد.
- جميل.
- وماذا بخصوص بدر هل سيأتي؟ سألت ربيعة.
- هذا ما نخطط له. أجبت بعد لحظة تأمل.

ها أنا أعود أدراجي إلى سكناي، غرفة نوم صغيرة، مطبخ، وحمام، ونافذة تطل على المجهول، أجلس وأنا أتأمل وجودي وأتساءل كيف وصلت إلى هنا؟ ! قبل سنوات فقط كنت أحلم أن أكون جندية مثل والدي أو شرطية، كانت تثيرني تلك البذلة المختلفة، وكنت أعمل بجد على تحقيق هذا الحلم بالرغم من أن والدي كان يرفض الفكرة تماما، درست جيدا لأنال شهادة الباكالوريا، وخططت بجد أكثر لأكمل دراستي الجامعية بمدينة فاس تخصص "علم النفس" لكن وللمرة الثانية رفض والدي الفكرة بشكل مطلق، تملكني غضب شديد، فمن جهة رفض أن أتقدم لمباراة الجندية، ومن جهة أخرى ها هو يرفض أن أتابع دراستي في التخصص الذي أحب، وكل هذا فقط لأنني بذلك سأبتعد عن ناظريه، لا أعرف السبب الذي جعله يرفض أفكاري ويقف عكس التيار الذي أرغب فيه وبشدة، لم يكن لدي خيار آخر غير متابعة دراستي بالكلية متعددة التخصصات بتازة على أن أغير مساري إلى "الدراسات العربية"، هذه الشعبة التي كانت هي الثانية على قائمة اختياراتي لسبب بسيط هو الحرف، الكتابة والنقد.

7 من كانون الثاني (يناير) 2020

مر الأسبوع على مضد تكتسحه كل أشكال الملل وتصاحبه الرتابة، لم أحتفي بالسنة الجديدة ولا بعيد ميلادي الذي لا يبعد عنها إلا بخمسة أيام كما تعودت أن أقوم بذلك مع صديقتي المقربة أسماء، صديقتي التي أرسلها القدر إلي حتى أتعافى من خلالها من صدمة الخيانة الطاعنة في الألم ومن صفعة الواقع المرير، كان ذلك قبل سبع سنوات عندما حاولت أن أعيش قصة من قصص الرسوم المتحركة على أرض الواقع، "عهد الأصدقاء" أي عهد هذا الذي قطعته على نفسي ليرسلني بضربة كف إلى قاع المحيط ويتركني غارقة في دوامة قاسية من الشك في كل شيء، دنيا كان اسمها ولم أكن أظن أنه سيصير اسما على مسمى، و أن تصير معه حقا ليست فقط في المراتب الدنيا من الأخلاق والحكمة والمبادئ الإنسانية بل دون ذلك قطعا، نعم.. لقد أنهت صداقة ثلاث سنوات مرت بكل ما تحمله من ثقل في القلب والذاكرة وضحت بها مقابل رغبة طائشة وغيرة لا محل لها منا، دمرت صداقتها مع شخص كان يحترم نفسه قبل أن يحترم الآخر، ويجيد تصنيف علاقاته جيدا والحسم فيها، وهذا كله لتبني علاقة جديدة من نوع آخر، وسط كل هذا كنت الشماعة التي حاولت أن تعلق عليها كل مساوئها لترميها في النهاية خارج اللعبة وتتبنى موقف الضحية، ببساطة لنقل أنني كنت كبش الفداء الذي ألقت به لتصيد الصيد الثمين، ولم تنجح. العلاقات ليست كالحضارات تقوم كل واحدة على أنقاض الأخرى، بل على العكس كل من حاول تبني هذه القاعدة في حياته خسر الاثنتين عاجلا أو آجلا، وهذا هو الشيء الذي لم تستطع تلمسه طيلة تلك المدة.

مهلا، ما الذي أعادني إلى هنا لأعيش المرارة من جديد.. لنوقف نداء الذاكرة.

مر الأسبوع وانضافت إلى هذا الجو الكئيب والضجر التحضيرات الأولية لامتحانات الدورة الأولى من السنة، والتي تقرر إجراءها في الثالث عشر من كانون الثاني (يناير)2020. زاد انشغالنا أكثر مع اضطرارنا لتحضير أنشطة المراقبة المستمرة الثانية لذات الدورة، كان الوقت يمر بسرعة عندما يتعلق الأمر بإنجاز عمل ما حتى أن في بعض الأحيان كان الأساتذة يسارعون الزمن لتقديمه في الوقت المناسب، ولكن على الطرف الآخر للمعاناة كنا ننتظر الليل بفارغ الصبر لننام حتى لا نحس ببطء عقارب الساعة، وكلما اقتربنا من العطلة المبرمجة ابتداء من التاسع عشر كانون الثاني(يناير)2020، يزيد الوقت في التفكك والتباطؤ وكأننا نقترب من ثقب أسود في الفضاء الخارجي. انعزلنا عن العالم بشكل شبه كلي، لم تكن لدينا طاقة إضافية لنستهلكها في تتبع أخبار العالم أو مناقشة وضعنا كأساتذة بين المطالبة بالحق وأداء الواجب.

استغرق الأمر أسبوعا آخر من العمل المضني بين إجراء للفروض وتصحيحها من جهة، وإدخالها منظومة مسار من جهة ثانية، هذه العملية التي لها طعم خاص في ظل غياب الاتصال بالشبكة العنكبوتية وضعف الصبيب، غالبا ما ننتهي منها ونحن مرضى أو نكاد نصاب بالجنون، لننتقل في ذات الأسبوع إلى إجراء الامتحانات الإشهادية للمستوى السادس ابتدائي وكل ما يصاحبها من إجراءات إدارية وتربوية، حيث يشتغل كل أستاذ من موقعه.

أنهينا العمل وصار بإمكاننا أن نحج جميعا إلى مدينة تازة، هذه المدينة العريقة التي ولدت فيها ذات الخامس من كانون الثاني (يناير) 1993 لأعانق الموت قبل معانقتي الحياة، تحكي أمي أنها كانت ليلة باردة كتلك التي خرجت فيها بائعة الكبريت لتعانق جدتها القادمة من العدم، ولدت دون أن أصرخ أو أن أفتح عيني حتى، أظنني كنت أحتاج لحظة مع نفسي بعيدا عن ضجيج الصراخ حتى أتخذ القرار بين الاستمرار أو الانسحاب، لكن تحت ضغط صفعات الممرضة (المولدة) كنت مضطرة لأتخذ القرار بسرعة. من كان يظن حقا أنني سأعيش طفولتي في هذه المدينة، وأكبر بين أزقتها لأكتشف نفسي شيئا فشيئا، وأصير في النهاية ما صرت عليه اليوم. كل هذه الأفكار زارتني دفعة واحدة ليوقظني فجأة تعثر حافلة النقل المزدوج التي نركبها بحفرة من حفر هذه الطريق الملتوية أو كما يسمونها بالمنطقة (مالولة)، طريق كلما نظرت إليها خيل لك وكأنها أفعى تترنح ذات يمين وذات شمال عطشى للدماء، تتربص بك لتلفظك خارجها على حافة الموت أو لتدخلك تاريخ الوفيات من باب الاصطدام بجبل النهاية. على أي، عدلت من جلستي وعدت لأستمتع بمداعبة فيروز لمسامعي، أمال تجلس أمامي مباشرة، أستاذة متزوجة ولها طفلين تحبهما كثيرا وتشتاق لهما أكثر حتى أنها حاولت مرة أن تحضرهما للعيش معها حيث تعمل لكنها لم توفق، فالقرية التي عينا بها تقع على بعد ساعتين من المدينة، وأقرب مستوصف لها يبعد بحوالي ساعة زمن، هذا والجو المتقلب جدا بين شدة البرودة شتاء والحرارة المفرطة صيفا، إذن كيف يمكن أن يعيش طفلين في هذه الظروف المناخية القاسية، وكيف يمكن لها أن توفر لهما كل متطلباتهما في مكان أقرب دكان لبيع الخضار فيه يبعد عنا حوالي نصف ساعة سيرا، أمام كل هذا ضحت بمقاسمتهما بعض لحظات الحياة مؤقتا في سبيل أن تحافظ عليهما وعلى صحتهما حتى و إن كانا بعيدان عنها نظرا لظروف العمل، هكذا أجابتني عندما سألتها يوما عن تجربتها في إقرار التوازن بين مسؤوليتين العمل من جهة والأسرة من جهة أخرى، لابد من أن يضحي الانسان ببعض الحقوق في سبيل أداء الواجب وتحقيق متطلبات أخرى للحياة، إلى جانبها تجلس ربيعة، الإنسانة التي تجاوزت كل الظروف والشروط القاسية لتدرس وتنجح ومن ثم تحصل على وظيفتها هذه عن جدارة واستحقاق، كم سهرت ليال باردة وتعبت كثيرا لتجتاز الاختبار المهني وتحصل على وظيفتها بالتعليم، لن أنكر أنها مثال الانسانة المثابرة، وها هي اليوم تكرس حياتها لخدمة والدتها الفاضلة على أمل أن تعيد لها ولو القليل مما قدمته كأم، يجلسان أمامي تارة يوشوشان فيما بينهما وتارة أخرى تنغمس كل منهما في عالمها، أنظر إليهما وأفكر، ما الذي يجعل المرء ينصاع ليتحمل فوق طاقته، ويتحمل كل هذه المسؤولية، يحملها على ظهره كالجبل؟ !

- وأنت؟ ماذا عنك؟
- أنا؟ بالنسبة لي في الواقع ليست لدي مسؤوليات كثيرة، وكل ما قد أمر منه من ضغط ليس من اختياري ولا حتى نتيجة قرار اتخذته يوما.

- وإذن؟

- مشكلتي الكبيرة التي تخلق المتاعب لي دائما وتدخلني في صراع مع نفسي تنحصر أساسا في تحمل هموم الآخرين ومواقفهم ومشاكلهم، والتعامل معها من باب حبي لهم كما لو كانت مشاكلي وهمومي.

- حسنا هذا شيء جيد، دليل على حرصك الشديد على أصدقائك والمقربين منك.

- لا، أبدا.. فغالبا ما تجدهم يتجاوزون مشاكلهم ومواقفهم بينما أظل عالقة بها، يعودون لعلاقاتهم من جديد متجاوزين ما اقترفوه فيها من أخطاء أو ما اقترف في حقهم من أخطاء، بينما يصعب علي تقبل هذا الاستهتار بحياتهم ومبادئهم وكرامتهم التي خانوها يوم اختاروا التعامل مع الوضع كأن شيئا لم يكن، فأجد نفسي عالقة بين تجاوز هذا كله مثلهم تماما لأن الأمر لا يهمني بشكل مباشر حتى اتعامل معه على طريقتي من جهة، وبين نداء الضمير والخوف من أن أخسرهم يوما من جهة ثانية.

استيقظت هذه المرة على صوت مزامير السيارات المتعالية في الأرجاء من غفوة الذاكرة التي تسللت إلي من باب حوار دار قبل سبع سنوات ولازال يتكرر داخلي. استقبلتنا تازة بجوها الغائم/الدافئ، وانتابتني في لحظة رغبة في أن أعانق المدينة بكل ما فيها، هنا فقط أتذوق طعما آخر للأكسجين، يتسلل عبر قصبتي الهوائية وينساب في هدوء لينعش رئتي، هنا فقط أشعر أني أتنفس، ولم أكن أدري وأنا في قمة انسجامي مع محيطي ما تخفيه لي الأيام القليلة القادمة، وكيف أن هذا الأكسجين المنعش سيصير من الصعب على الرئتين تحمله أو تقبله بضربة سوء تقدير أو بغفلة سعال.

18 من كانون الثاني(يناير2020)

وضعت حقيبتي أرضا ورميت المعطف بعيدا، وبينما آخذ قسطا من الراحة كانت أمي تعد لي طعام الغداء، لم أتناول الكثير فقد كنت منهكة وقررت ألا أغادر البيت مدة يومين على الأقل، في الحقيقة لم أكن أظن أن خطوة البقاء في البيت للراحة والنوم التي اتخذتها بملء إرادتي ستكون بعد أيام خطوة عملية لننقذ أنفسنا من الموت.

نمت لعدة ساعات حتى أتجاوز التعب القاتل الذي أحس به، وحتى أعوض فترات استيقاظي طوال الليل بسبب الأرق، هذا الوحش الهائج الذي يعد من بين النتائج التي أعاني منها منذ أيام التدريس بفرعية "العواودة"، الأيام السوداء تركت أثرا كبيرا على نفسيتي، أليست كل معركة تترك أثرا على محاربيها إن لم يكن جسديا واضحا يكون نفسيا، أنا كذلك خرجت منها كمحارب فاز بالمعركة لكن ليس دون خسائر.

جلست إلى جانب أمي أستمع لما تحكيه لي من أخبار العائلة والحي، "سهير" أختي الوحيدة التي تصغرني بحوالي 8 سنوات صارت ناضجة أكثر بعد زواجها الحديث، وإنجابها لأول طفلة "هداية" ذات الخمسة أشهر، ازدادت جمالا وتعلمت الكثير من الأشياء في غيابي، جارتنا "الخالة مليكة" التي لاتزال كما عهدتها كثيرة الكلام والتدخل في ما لا يعنيها، قد أرسلت ابنتها الوحيدة إلى مدينة طنجة للعمل بإحدى شركات "الكابلاج"، جارتنا "الخالة ثرية" و صديقتها "الخالة نزهة" مازالتا تزوران أمي من وقت لآخر لتتجاوزا حالة الملل، ويفضفضن لبعضهن البعض. نظرت إلى ساعتي، يبدو أن الوقت قد تأخر، دخلت غرفتي لأعانق وسادتي وأنام.

مرت حوالي خمس ساعات، وكالعادة استيقظت من النوم حوالي الرابعة صباحا، قبل سنتين كنت أنزعج من هذا النوم المتقطع، لكن اليوم لم أعد كذلك لقد تعودت. فتحت هاتفي الملقى بجانبي لأطلع على صفحتي الخاصة على "فايس بوك" كما أفعل عادة عندما يغادرني النعاس تاركا إياي تحت رحمة الظلام الحالك ووطأة الوقت. مهلا، مهلا، ما هذا؟ ما الذي يجري؟ في 31 من كانون الأول ديسمبر 2019، أبلغت الصين منظمة الصحة العالمية عن تفشي "التهاب رئوي غير معروف" داخل مدينة ووهان وبالضبط بمقاطعة خوبى، وقد كان أول مصاب تم الإبلاغ عنه قد ظهرت عليه الأعراض في الثامن من كانون الأول(ديسمبر2019)، وقد تم التأكد لاحقا أنه من مالكي متاجر السمك في سوق ووهان، لهذا تم إغلاق السوق في الأول من كانون الثاني (يناير 2020). قرأت الخبر وتذكرت ما أخبرني به صديقي حميد.

- إذن الخبر صحيح جدا، يا إلهي يبدو أن الصين ستكون في وضع صعب إن انتشر هذا الالتهاب في أنحائها.

هكذا حدثت نفسي عندما قرأت الخبر على صفحات إحدى الجرائد الالكترونية، لأراسل صديقي مباشرة بعد ذلك أسأله إن كان قد اطلع على الخبر، كانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحا، تركت له رسالتي على الخاص وعدت للنوم بعد أن ألقيت بهاتفي بعيدا.

- يبدو أن الأخبار تصلك متأخرة جدا.
- كيف ذلك؟ لم أفهم.
- لقد تجاوز المرض مدينة ووهان في الصين وانتشر في باقي المدن، كما أنه انتقل إلى دول أخرى.
- أين؟
- لقد تأكد أن المسافرين هم المسؤولون عن نقله خارج ووهان، كما أنه في 13 من كانون الثاني (يناير)2020 قد أبلغت تايلاند عن أول حالة لديها، والصين نفسها قد أبلغت عن أول الحالات داخلها لكن خارج حدود ووهان اليوم 19 من كانون الثاني (يناير) 2020.
- مهلا، هل هذا يعني أنه صار وباء؟
- لا، لم يعلن بعد عن ذلك، لكن إن استمرت الأمور على ما هي عليه الآن فقد تستمر العدوى.
- في الحقيقة لم أكن أظن أن الأمور معقدة إلى هذه الدرجة، كنت أحسبه مجرد مرض عادي سيتم علاجه في فترة من الزمن.
- لا عليك في القادم من الأيام ستتضح الأمور أكثر.

ختمت يومي بالتحدث إلى صديقتي أسماء التي كنت قد أخبرتها مسبقا أنني بالمدينة، هناك أشياء عندما تتعود عليها لا يمكنك التخلي عنها، ومما تعودت عليه طوال السنوات الأخيرة أن لا يمر اليوم دون أن أحادث أسماء، وأن لا تمر العطلة وأنا بالمدينة دون أن ألتقي بها وتكون لنا جلسة أو جلستين خلالها، نشرب حليبا بالشوكولاتة أو الكراميل بردا، بينما ننتعش بعصير الليمون أو البرتقال حرا، وفي بعض الأحيان نتجاوز ذلك بأن نتناول طعام الغذاء في أحد مطاعم المدينة، كنت أبحث في كل مرة عن مكان جديد لكي نكتشفه بزيارته، لكن في الآونة الأخيرة لم أعد أبحث كثيرا كما أن حماسة الاكتشاف التي كانت متقدة لدي لم تعد كذلك.

- لماذا؟
- لا أريد التكلم في الموضوع، فغالبا ما ينتهي الأمر بجدال.

أنهيت الحديث برغبة عميقة في النوم، لم أتمكن حتى من إلغاء الأنترنت على الهاتف، ونمت على أمل أن نلتقي في الغد. كنت آمل أن أنام حتى العاشرة صباحا لكن وكالعادة استيقظت عند الرابعة، رأسي يكاد ينفجر، حملت هاتفي بين يدي ورحت أطالع بعض الصحف، وفجأة انتابتني رغبة وفضول في تشغيل

محرك البحث حول المرض الذي بدأ في الانتشار، وما هي إلا ثوان حتى أجابني (Google) عبر منصة ويكيبيديا بتعريف مبسط يقول: ***"حدد نوع الفيروس الذي تسبب في تفشي المرض بسرعة على أنه فيروس كورونا جديد. وفي العاشر من كانون الثاني(يناير)2020، وبعد تحديد تسلسل الجينات أعطي له اسم nCov-19، وهو فيروس بيتاكوروناڤي، يرتبط بفيروس متلازمة الشرق الأوسط التنفسية (MERS-Cov) وفيروس متلازمة الالتهاب الرئوي الحاد (SARSCov). ولازال معدل الوفيات وأسلوب الانتقال لفيروس (nCov-19) غير معلوم بشكل كامل، ومن المرجح أن يختلف أسلوبه عن فيروسات كورونا السابقة المشار إليها".***

- أيعقل أن يصير هذا الفيروس وباء عالميا كما حدث مع كل الأوبئة السابقة التي اطلعنا عليها عبر التاريخ؟

حسنا كانت تحكي لي جدتي رحمها الله عن أمراض مرت بهم وأوبئة فتكت بعشرات الآلاف هذا إن لم نقل بالملايين، وها نحن اليوم نتعرف على فيروس يعدي وينتشر ولا نعرف عنه شيئا. مرة أخرى أرمي بالهاتف بعيدا لأحاول النوم من جديد، أصارع من أجل ذلك.

20 من كانون الثاني(يناير)2020

الشارع مكتظ بالناس، الكل يعيش يومه وكأن الأمور كلها على ما يرام، ترى هل لديهم خبر بما يجري الآن؟ هل لديهم خبر بأنهم يواجهون مستقبلا مجهولا؟ هل لديهم خبر أن الفيروس قد انتقل لليابان منذ 15 من كانون الثاني (يناير)2020، وأن اليوم بالذات 20 من كانون الثاني(يناير)2020 قد اكتشف انتقاله لكوريا الجنوبية كذلك؟ هل نحن بعيدين إلى هذه الدرجة عن كل هذا؟ أم أننا واثقين كفاية من أنه لن ينتشر بيننا؟ وإن كان الأمر كذلك فما الذي يجعلنا واثقين إلى هذه الدرجة؟ ألسنا من سكان كوكب الأرض؟ !

أتأمل وجوه المارة في طريقي للقاء أسماء وأندمج مع الجو العام، لا شيء هنا يدعو للقلق.

المقهى (la palette antique) خال إلا من بعض الطلبة يجالسون كتبهم وحواسيبهم، اخترنا مكانا مطلا على شكل من أشكال الخراب المرئي، وجاء النادل ليضع القائمة أمامنا، لم نفكر كثيرا ف أسماء تعتمد علي في الاختيار وأنا لم أتردد في طلب كوبي عصير ليمون وبرتقال، طبعا الليمون لها والبرتقال لي، إلى يومنا هذا وطوال27سنة أعجز عن تذوق الليمون دون ردة فعل كطفل يتعرف الأذواق لتوه. قضينا بعض الوقت معا ندردش هنا وهناك دون أن نحدد موضوعا أو فكرة، هكذا صارت عادتنا، نخلق جوا للاستمتاع دون الحاجة للكثير من الشروط، لكن هذا لا يعني أننا لم نتغير كثيرا تأثرا بكل ما مررنا به من مواقف طوال مدة صداقتنا، فالموت يعلمك درسا، الخيانة تعلمك درسا، البعد يعلمك درسا، الإهمال كذلك والصمت، كل المواقف تقدم لك دروسا على طبق من الانكسار، مصحوبا ببضع كؤوس من ويسكي المعاناة وفودكا الألم.

- بدر لن يتمكن من المجيء هذه العطلة. بحت وأنا أتناول كوب العصير.
- وما السبب؟ سألت أسماء
- والدته ستتغيب عن المنزل لفترة ومضطر لأن يعتني بوالده، لقد اتصل بي وأخبرني قبل يومين.
- لا بأس، فالأمر خارج عن إرادته.
- نعم، كما قلت تماما.

غادرنا المقهى عند السابعة، أسماء كانت متعبة جدا استقلت الحافلة فورا، واخترت أن أتمشى قليلا، أفضل المشي في حالتين عندما أفكر وعندما أتألم، في الحالة الأولى لأتجاوز ألم الرأس و أتخد القرار المناسب بحكمة، وفي الحالة الثانية لأبعثر الألم الذي يعتصر قلبي.

- وماذا الآن؟ تفكرين أم تتألمين؟
- أفكر.
- فيما تفكرين؟

- فيما سأقدم عليه.

بدر شاب يكبرني بحوالي سنتين، درس الجغرافيا بجامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، تعرفت عليه منذ حوالي سبع سنوات من خلال رفاقي بالجامعة آنذاك، كنا نتواصل في غالب الأوقات لنناقش بعض الكتب والروايات، وكان يطغى على حديثنا الحوارات الشعرية أو المقاطع الروائية لكبار المؤلفين والشعراء، نتأرجح بين "محمود درويش"، "أحمد مطر"، "فدوى طوقان"، جبران خليل جبران"، عبد الرحمان منيف"، "أحلام مستغانمي"..، شدتنا هذه الحوارات كثيرا فترة طويلة لنتوقف بعد ذلك، ببساطة انقطع الاتصال بيننا، أصبنا بالإحباط وانشغلنا بمأساة البطالة بعد الإجازة، استغرق الأمر سنوات لنعيد إحياء التواصل من جديد، سنوات كانت كافية لتكون فاصلا بين عهدين، كانت كافية لنقف اليوم على اتخاذ قرارات قد تقلب الموازين رأسا عل عقب وقد تفاجئ الكثيرين. ترى ما الذي جعلني أتخذ هذه الخطوة الآن بالذات؟ ما الذي يدفعني إلى تحطيم أفق التوقع هذا؟ أهي الرتابة التي لا تحتمل أم فضول التجربة؟ أهو حب الاستطلاع أم روح المغامرة؟

دخلت البيت متعبة، تخليت عن حدائي بالباب واتجهت إلى الحمام مباشرة، بعد فترة من المشي والتفكير تحتاج فترة استرخاء تحت قطرات الماء الدافئ، تبتل لتغتسل مما يثقل كاهلك كما تبتل الأرض بقطرات المطر لتخف أثقالها، تتسرب إلي رائحة التراب المبلل، آخذ نفسا عميقا كمن يغوص في عمق البحر لأغوص في عمق الذاكرة..

المطر الخفيف يدغدغ الذاكرة..

يرمي تفاصيل الحنين على عاتقي..

ويلاعب ما تبقى من القصيدة..

خارج البيت..

على بعد وجع يعزف للغياب..

لا القيتارة عيد ولا الرباب..

العيد هو أن يحملني الموت.

في عطلة الأسبوع..

على جناح طائر أعمى..

إلى ما وراء التراب والماء..

أرى صورتها واقفة كنخلة..

تتمشط أمام المرآة..

تنظر إلي بكامل جرأتها..

والطيف الغبي يتسلق التابوت..

في انتظار صيحة القيامة..

كان يمكنها أن لا تسير عكس التيار، كان يمكنها أن تكون كالبقية تنكسر كلما حلت بها عاصفة هوجاء، لكنها اختارت الطريق الآخر، اختارت أن تصرخ بكامل قناعتها في وجه رئيسها عندما حاول عبثا أن يشوه قصيدة نزار قباني في حب امرأة، وجعلت منه مرثية لا تقبل المدح، ولوحت بيدها عاليا لتصفعه عسى أن ينظر لحاله، طردها آملا أن تعود إليه راكعة، فاحتفلت بالمشهد وأعلنت الحرب.

الحرب؟ وهل الحرب عادلة بين اثنين أحدهما يملك كل شيء والثاني لا يملك شيئا غير كرامته، تلك الكرامة التي نالت عقابا قاسيا عندما خانها الحداء مرة واحدة وإلى الأبد، فلم يعد بمقدورها زيارة السنابل على الطرف الأيسر للشارع، كما فقدت قدرتها على نفض غبار الستائر كل صباح، لم تعد تقف أمام المرآة لتمشط شعرها، غادرت المكان فجأة تاركة خلفها إرثا عظيما لا يقاس بمال، كما خلفت ذاك الجبل المؤلم من العبارات الحارقة والحقوق المسلوبة، الوجع الذي أثقل كاهلي وغير ما تبقى من الحياة، ليصرخ الجميع بعد الشهقة الأخيرة: وا أسفاه أين شراع السفينة؟

دونت آخر سطر، وضعت القلم جانبا، وعدت لأستلقي مرة أخرى وأنا لازلت عالقة بتلك التفاصيل الصغيرة، لقد توفيت خالتي خديجة منذ سنوات ولم أتجاوز ذلك بعد، خاضت الكثير من المعارك ضد المرض اللعين وفازت بها، لكنها لم تتمكن من قول كلمتها الأخيرة نهاية الحرب، خسرت حربها ضد السرطان وخسرت معركتي أمام النسيان. انبعث رنين الهاتف لينتشر في أرجاء الغرفة، حملته بين يدي متثاقلة، لا رغبة لي بالحديث.

- ألو، أهلا.
- ألو، كيف الحال؟
- من؟ رفيقي الوسيم؟
- كيف حالك؟ سأل ضاحكا
- بخير ما دمت بخير، وأنت؟
- بخير.

- هل وصلت؟
- نعم منذ يومين.
- جميييل، اشتقنا لك.
- وأنا كذلك، ما رأيك في أن نلتقي.
- موافقة، متى؟
- بعد غد، هل يناسبك؟
- بالنسبة لي جيد، سأتصل بـ أسماء لأسألها.
- حسنا اتفقنا.

رميت بالهاتف بعيدا مبتسمة، حسام هذا الصديق الغالي هو الشخص الوحيد الذي يجعلني أبتسم بمجرد أن أرى رقمه أو اسمه على هاتفي حتى وإن كنت في أقصى درجات الغضب، لديه تأثير خرافي على من يحيطون به من أصدقاء، اكتشفت ذلك منذ أن تعرفت عليه، 2013 كانت سنة حافلة بالمستجدات والتغييرات، تعرفت فيها على الكثير من الأصدقاء والصديقات بالجامعة، وحسام كان واحدا منهم، آنذاك كان قليل الكلام والنقاشات فهو لا ينسجم بسرعة مع الغرباء وأنا كنت حينها من الغرباء، لهذا غالبا ما كان سعيد يتولى الأمر أصالة عن نفسه ونيابة عنه، درس الجغرافيا وأنهى إجازته في ذات السنة التي تعرفت عليه فيها، لكن تلك الفترة كانت كافية لأقرأ شخصيته أكثر، أنا التي كنت مولعة بالتحليل النفسي وتحليل الشخصية وعلم الفراسة يمكن أن أقول أنه ببساطة يمثل ذاك الهدوء الذي يسبق العاصفة. نعم، حسام ظاهريا يبدو هادئا، متحكما، حكيما، بمشية متقدمة إلى الأمام وجلسة معتدلة وواثقة جدا، ملامح جدية أكثر وقد تبدو لمعظم من يراه قاسية وحاسمة، لن أنكر أن كل هذا حقا هو من مميزات شخصيته، لكن هذا لا يعني أنه ليس لديه جانبا خفيا بداخله مثلنا جميعا لن يتلمسه ويدركه إلا من كانت لديه دقة ملاحظة، وأنا الآن أتحدث عن حسام الصديق الحساس جدا، والمتألم جدا، المحب جدا، والحزين جدا، رفيقي الذي إذا كان يجلس بيننا مكتئبا ابتسم، قد تلغي الابتسامة ملامح الحزن على وجهه لكن أبدا لا تستطيع أن تمحو بريق الحزن في عينيه، نافدتان صغيرتان تطلان مباشرة على قلبه الطيب، صديقي الذي صار رجلا في عز طفولته وكأنه يسابق السنين دفعة واحدة، تاركا خلفه طفلا مكبلا داخله في ركن من أركانه، هذا الطفل الذي يطفو من وقت لآخر فقط أمام أعيننا ليخلق السعادة من لا شيء، ليجعلنا ببساطة نبتسم، إذن كيف لا أنعته برفيقي الوسيم.

22 من كانون الثاني (يناير) 2020

يصعب كثيرا أن تجمع في لقاء واحد بين أصدقائك الذين يختلفون تماما عن بعضهم البعض ولا أمل في انسجامهم ولو قليلا، وشاءت الأقدار أن ألتقي أسماء وحسام بحضور وفاء وفاطمة الزهراء، يا إلاهي وكأنك تضع البنزين والنار في كف واحدة لتنتظر النتيجة، وفاء وفاطمة الزهراء صديقتان وفيتان كنت قد تعرفت عليهما عن طريق دنيا، انتهت صداقتي بها واستمرت صداقتي بهما، طالبتان درستا القانون بالكلية متعددة التخصصات بتازة، اكتفت فاطمة الزهراء بالإجازة ولم يحالفها الحظ لتخوض تجربة أخرى بعد، أما وفاء فقد تابعت مسارها الدراسي بمدينة وجدة لتحصل خلال سنتين على الماجستير في القانون، كانت تجربة لها حلاوتها بالرغم من أنها لا تخلو من العقبات والعثرات والكثير من الكفاح والجراح. جلسنا جميعنا إلى طاولة بمقهى حديقة Municipal، خيم الصمت في الدقائق الأولى لكن سرعان ما بدأنا نطرح مواضيع موسعة وشاملة حتى يتمكن الكل من التفاعل، لكن بالرغم من ذلك إلا أن الاختلاف كان واضحا جدا، تحدثنا في كل شيء بدء من المسار الدراسي الذي عقب الجامعة، مرورا بالنضالات التي خاضها الأساتذة المتدربون أو فوج الكرامة كما كانوا ينعتون موسم 2016/2015، والذي كان حسام من بينهم أستاذا ومناضلا، وصولا عند النضالات التي خاضها أساتذة التعاقد من أجل الحق في الترسيم مع وزارة قطاع التعليم بدل الاشتغال بالعقدة الموقعة مع الأكاديميات، والذين أعد من بينهم، كان نقاشا غنيا حقا تأرجحنا فيه بين مواقف مؤيدة ومواقف مضادة، ولم يخطر على بال أي منا أن يتحدث حول انتشار فيروس كورونا في الصين والدول المجاورة، هذا الموضوع بالذات كان بعيدا كل البعد عن تفكيرنا، ليس نحن فقط بل الجميع.

في نفس الوقت وفي الجهة الأخرى من كوكب الأرض كانت تايوان والولايات المتحدة وهونغ كونغ وماكاو قد أعلنوا جميعا بدأ ظهور حالات مصابة مؤكدة بفيروس كورونا الجديد Covid-19، في نفس الفترة التي كان فيها الفيروس يتفشى بسرعة كبيرة في الدول التي كان قد ظهر فيها من قبل وخاصة الصين التي تعتبر البؤرة ومصدر انتشار الوباء. ترى ما الذي دفعنا إلى التعامل ببرودة مع الأحداث والوقوف على طرف الحياد وكأننا غير معنيين؟ ما الذي جعل الناس لا يصدقون هذه الأخبار واعتبارها مجرد إشاعات وكلام فارغ؟ أهو استهتار منا أم قلة وعي؟

اتفقت مع كل من وفاء وفاطمة الزهراء على زيارة قرية بنواحي تازة تبعد بحوالي عشرين دقيقة "مكناسة"، شريطة أن آخذهما بسيارتي، فمنذ أن اشتريت هذه السيارة قصد التنقل بها للعمل وهما تنتظران جولتهما بها، ويبدو أنه حان الوقت. أسماء لم يكن بإمكانها مرافقتنا ولا حسام كذلك لانشغالهما مع العمل والعائلة، لهذا قطعت وعدا على نفسي بأن أبرمج لجولة من إبداعي لهما فقط. أنهينا جلستنا البسيطة، حسام غادرنا في اتجاه المدينة القديمة "تازة العليا"، بينما قمت بتوصيل أسماء إلى منزلها بـ"المسيرة1"، أما وفاء وفاطمة

الزهراء فهما تقطنان في طريقي، وما هي إلا دقائق حتى صرت وحدي أقود متأملة المساء وغروب الشمس.

الساعة تشير إلى الحادية عشر صباحا، عدلت من جلستي وأدرت مفتاح السيارة ثم انطلقت للقاء وفاء وفاطمة الزهراء، اقتنينا بعض الفطائر وما هي إلا دقائق حتى صرنا في طريقنا إلى "مكناسة"، وكما كنت أقول دائما السفر ليس هو نقطة الانطلاق ولا هو نقطة الوصول، السفر هو كل ما بينهما، استمتعت بالقيادة في جو من المرح والبهجة، عشرون دقيقة كانت كافية لنصل هناك ونبدأ في تنزيل برنامجنا، وبين المشي وأخذ الصور التذكارية وتناول وجبة الغذاء كان هناك الكثير من التأمل. مر الوقت بسرعة، اللحظات السعيدة دائما ما تمر بسرعة البرق عكس الحزينة تماما تظل عالقة بك، وها أنا مرة أخرى أقود سيارتي وحدي في اتجاه البيت، أنظر إلى غروب الشمس و أضواء السيارات المزعجة، ماذا لو كانت هنا؟ ! ماذا لو تغير الماضي وسلك القدر طريقا أخرى غير التي سلكها؟ ! أتساءل وأجيبني: كانت لتكون هنا في هذه اللحظة، نعم، هنا تجلس بجواري على بعد نفس، تشجعني كلما خانتني قدماي في الدوس على الفرامل، وتمسك بيدي كلما ارتعشت لتثبتها على المقود جيدا، وكأنها بذلك تخاطبني "دعك من هذا عزيزتي، تجاوزي خوفك فهو من نصيب الجبناء وما عهدتك هكذا"، كانت لتضمني إليها. رباه وكم أشتاق/أحتاج لذلك ! لم يعد بمقدوري الاستمرار، توقفت يمينا ونظرت إلى المرآة أمامي، أبتسم، أحقا هذه القطرات على وجهي عادت لتبللني؟ أتذوق ملوحتها كمياه البحر، وأكتشف أني كنت أشتاق لدموعي كذلك، في النهاية كل منا تعرضت للخيانة، خانها الحذاء وخانتني دموعي.

ركنت السيارة وغادرتها فورا لأتنفس، دخلت البيت متعبة جدا، أمي المسكينة ظنت أن مشواري كان طويلا، ولم تكن تعلم أن الذي يتعبني أكثر هي مشاويري المنتهية إجبارا، الذي يتعبني أكثر هو هذا الحضور المليء بكل أشكال الغياب، هي الذاكرة التي تتشبث بكل التفاصيل حتى الصغيرة. تخلصت من معطفي عسى أن أتخلص معه من مشاعري المتضاربة، اعتذرت عن العشاء وخلدت للنوم فورا.

26 من كانون الثاني (يناير) 2020

في كل مرة أستعد فيها لمغادرة المدينة، أجمع حاجياتي بمنتهى التعب، أحمل على كتفي شوك البلاد كشخص يغادر الحياة في اتجاه الجحيم، لا عائلة، لا أصدقاء، لا حركة، لا صوت يعلو فوق صوت أطفال يجرون حقائب المدرسة كمن يجر خيبة أمل لم تأت بعد.. لكنهم يشعرون بها.

وضعت حقيبتي أرضا وإلى جانبها كيس مكدس بأكلات سريعة التحضير وبعض المعلبات، أخيرا انتهيت ولم يبق أمامي إلا الاتصال ب ربيعة وأمال لننسق معا بشأن الغد.

- آلو، كيف الحال؟ افتتحت المكالمة متسائلة
- بخير، وأنت؟ ردت ربيعة.
- أتأقلم، ماذا بخصوص الغد. سألت ثانية.
- اتصلت بـ "عبد الرحمان" واتفقت معه على أن ينتظرنا غدا بسوق "تايناست" ليقلنا إلى "أهل مولة"، أجابت ربيعة موضحة.
- جميل، وماذا تقترحين في شأن لقائنا غدا؟ سألت مرة أخرى.
- حسنا، أظن أنه من الأفضل أن نكون بمحطة سيارات الأجرة عند الخامسة والنصف صباحا. ردت ربيعة.
- جيد، لابأس.. سأخبر أمال، إلى اللقاء. أنهيت المكالمة.

الخامسة صباحا والأسبوع الأخير من كانون الثاني (يناير)، إنه العذاب حقا.. !

أبعدت الهاتف عني كمن يبعد لعنة، ودخلت الحمام بسرعة عسى أن أريح أعصابي وأسترخي قليلا، ألمس الماء هذه القطرات الصغيرة التي تبللنا من وقت لآخر، أغمض عيني لبضع ثوان متناسية سفر الغد وتعب اليوم وتفاصيل الماضي، أحاول أن أغادر الرقعة أن أتسلل خارجا فلا أكون للوقت ملكة متسلطة مخيفة ولا بيدقا مأمورا مغلوبا على أمره، أسعى لأن أكون أنا فقط.. .

عانقت وسادتي بلطف، هذه الوسادة التي لطالما أرهقتني وحملت في وجهي بندقية، أغمضت عيني قليلا لأفتحهما فجأة على صوت منبه الهاتف، إنها الخامسة، نعم، الوقت سيد الموقف، أحس بتعب شديد لكنني أدرك جيدا أنه لا مجال لأن أتلاعب بالعقارب، ارتديت ملابسي بسرعة، لأشرب قهوتي الصباحية وأغادر البيت صحبة والدي، وما هي إلا دقائق حتى كنت بالمحطة إلى جانب كل من ربيعة وأمال، حاولت أن أستغل ساعتي السفر هذه لآخذ قسطا من النوم، لكن هذا كان من سابع المستحيلات في حضور كل هذه المنعرجات والحفر التي توجت بسياقة متهورة لسائق همه الوحيد أن يسارع في طي المسافة.

عبد الرحمان ينتظرنا بسيارته ليقلنا إلى "أهل مولة"، نصف ساعة كانت كافية لنكون أمام باب المدرسة، أدخنا حاجياتنا على مرأى من التلاميذ، تلامذتي الصغار الذين ينظرون إلي تارة بإعجاب وتارة أخرى بخوف ربما، يقبلونني سلاما في كل مرة يغادرون القسم، متعلقين بهذا الجسد النحيل، مستمدين منه شجاعتهم وقوتهم غير مدركين لما يحمله من جراح، وكم من الطعنات نالت منه ونال منها.

دخلت الحجرة بخفة ونشاط، إنها بداية الأسبوع بعد عطلة.. .

اليوم..

15 من أيار (ماي) 2020

أجلس في الغرفة لا سعيدة لا حزينة، أنظر إلى السقف وأتأمل المصباح المضيء، أنصت في صمت لزخات المطر، المطر الذي اشتقت له كثيرا، ومن وقت لآخر أقوم بإطلالة خفيفة على هاتفي حتى أجيب على ما وردني من رسائل. هذا الجو الهادئ صار هو الجو السائد في المنزل ليلا منذ أن أعلنت حالة الطوارئ بالبلاد قبل شهرين، وهو ذاته الجو الذي أعطى لشهر رمضان طعما مختلفا هذا العام.

- هلا مددتني بترجمة للأغنية التي قمت بنشرها. سألت حسام على الخاص.
- أيمكنك سماعها بصوت رجولي خشن سكير؟ أجابني
- أفضل أن أسمع ترجمتها بصوتك إذن، ألا يمكنك؟ تساءلت
- حسنا كلمات الأغنية كالآتي: " جلست على حجر وبدأت تبكي ودموعها تنهمر كالوديان، تملأ كفيها، كانت ترعى الأغنام مع راع يعزف نايا، كانا يلعبان (ثيخامين) والقصص يرويان، وجاء ذلك اليوم الذي تقدم فيه لها تاجر غني، اشتراها مقابل لحم وشواء، تزوجها وصار يلعب بها كالحجر.. إلى أن طردها، جمعت أغراضها المسكينة ورحلت. آه يا أمي، سأرمي بنفسي إلى البحر، باعني أبي بقالب سكر، أنا الإنسانة الحرة بكرامتها ساوموا علي كما البهائم، لماذا؟ لماذا؟ آه يا أمي سأرمي بنفسي إلى البئر، باعوني، باعوا قلبي، لماذا؟ لما حجبت شمسي الغيوم؟
- قصة حزينة حقا. قلت
- والأغنية كذلك؟ أجاب حسام
- ما اسم الأغنية؟ سألت
- الأغنية باسم "ثقيم خي جن وزرو". أي "جلست على الحجر". رد حسام شارحا.
- أتعلم صديقي، أحب الاستماع للأغنية الأمازيغية حقا وإن كنت لا أفهم كلماتها، أحببتها منذ استمعت لأول أغنية أمازيغية، كانت بعنوان "ابابا ينوفا" للراحل "إيدير".
- لديه الكثير من الأغاني حتى أن لديه أغان فرنسية كذلك، مثل: pourquoi cette pluie، وSendou، رد حسام ثم أضاف: لقد حزنت كثيرا لرحيله.
- أنا كذلك موته كان صدمة بالنسبة لي، لم أتوقعه.

"الموت لا يعني لنا شيئا يكون فلا نكون"

"إيدير" الرجل الذي استطاع بأغنية واحدة أن يغريني لأستمر بعد ذلك في الاستماع لأغان أمازيغية لا أفهم من كلماتها شيئا، ولكنني أستمر، نعم هذا الرجل دمعت أعيننا ونحن نودعه منذ أيام، غادرنا وأسلم روحه إلى بارئها ونحن على بعد وجع نتساءل من تراه سيحمل المشعل بعده؟ ! من رثاه سيكتب كلماته

للطفلة البريئة في أعالي الجبال، من سيكتب للبن وكسرة الخبز؟ ! غادرنا في قلب المعركة ضد الوباء دون أن نراه أو أن نشيع جنازته، رحل متواضعا جدا كما كان.

توقف المطر وتوقفت معه ألحان الطبيعة، كل المؤشرات ترمي إلى تمديد الحجر الصحي مدة أخرى، عدد المصابين في ارتفاع كل يوم، وعدد الأغبياء كذلك، رجال الأمن منتشرون في الشوارع والأزقة بكل البلاد منذ أن أعلنت حالة الطوارئ، أملا في التقليل من تنقل الناس، عمال النظافة لم يتوقفوا عن العمل، هم كذلك استمروا في تنظيف الأزقة رغم قلة الموارد، والأساتذة يسهرون على تقديم الدروس عن بعد لإنجاح السنة الدراسية، الكل يقوم بأقصى ما يمكن لينقذ ما يمكن إنقاذه، الكل يتحرك من موقعه خلف صفوف مجندة بالجبهة الأمامية من أطباء وممرضين رجالا ونساء، هؤلاء الذين فارقوا أسرهم، أبناءهم، حياتهم التي كانوا يعيشونها ليواجهوا كل يوم مصيرا مجهولا، بين إنقاذ وإنعاش وموت محقق.

- فاطمة، أ أنت نائمة؟ تساءلت أمي
- كلا، أنا مستيقظة.
- لما تجلسين وحدك هنا دون إنارة حتى؟ سألت مستغربة
- أمي..
- نعم
- أكان يجب أن ينتشر وباء كهذا ليعيد العالم ترتيب نفسه؟ !
- ربما
- إذا كنا حقا نشهد اليوم مرحلة الدمار هل سيساعدنا الحظ لنشهد مرحلة البناء من جديد.
- من يدري ! هل أنت بخير؟
- لا أعلم.

غادرت والدتي الغرفة محملة بعبء أسئلتي التي بدت لها دليلا على حمقي ربما، وعدت لأتأمل الصمت مجددا.

20 من أيار (ماي) 2020

سبعة آلاف ومائة وثلاثة وثلاثون حالة مؤكدة مصابة بفيروس كوفيد 19، أربعة آلاف وثمانية وتسعون من المتعافين، ومائة وأربعة وتسعون حالة وفاة، حصيلة اليوم كما صرحت بها وزارة الصحة بالبلاد، كنا ننتظر اليوم بفارغ الصبر أملا في الخلاص ورفع الحجر لكن الأمور تسير عكس ما نرغب به، هذه الحصيلة كانت كافية لتكون سببا في تمديد الحجر الصحي ثلاثة أسابيع أخرى، لن أنكر لقد استاء الجميع من هذا القرار، خاصة من يلتزمون بالحجر التزاما تاما نظرا لطول مدته من جهة، ومن جهة أخرى صعوبة العيش والفقر المدقع الذي يعيش فيه الكثير من المغاربة، هؤلاء صارت لقمة العيش همهم الأول والأخير.

حسنا سيمتد الحجر الصحي مدة أطول وستمتد معه مدة استعماري لهذه الغرفة، غرفة صغيرة تتوسط أحد جدرانها نافذة أتمدد تحتها مباشرة لأتأمل السماء كل ليلة، أنظر إليها وكأنها تحاكيني "لست إلا للإغاثة أو لآخر نظرة إلى الشمس قبل هنيهة الموت"، وعلى يميني كتب تتطاول بعناوينها لتستفز مخيلتي المحبطة وعلى بعد قلم منها هاتف لا يرن أبدا.. أبدا.

- أهلا، كيف الحال؟ راسلني بدر
- أهلا بك، بخير وأنت؟ أجبت
- بخير، هل شرعت في كتابة روايتك؟ سألني
- نعم أكيد
- موفقة، عند انتهائك منها أريد أن أقرأها. أضاف
- أكيد سأطلعك عليها.
- اشتقت لك كثيرا. حدثني
- جميل، وأنا كذلك.
- سأتركك الآن، سأذهب لتحضير فطوري.
- حسنا شهية طيبة، نتحدث لاحقا.

لم أحدث أحدا منذ مدة، غالبا صرت أجيب من يراسلني فقط دون أن أراسل أحدا، فقدت شهية الحديث، حتى من صديقتي أسماء توقفت عن مراسلتها إلا للضرورة وهي كذلك منذ مدة، يبدو أن الجو العام لهذا الحجر صار أكثر تأثيرا علينا، فقد انتقلت من مرحلة العصبية الزائدة من أي شيء مرورا بمرحلة تحضير الأكلات الفاشلة ثم الردود الباردة والضحك على كل شيء، والآن التوقف عن كل شيء والتأمل في أي شيء.

قبل أشهر...

2 من آذار (مارس) 2020

العالم موبوء، الأموات في كل مكان حتى الدول المتقدمة في حيرة، ونحن هنا نترقب ونطلع كل يوم على الأخبار رغم صعوبة الأمر خاصة مع ضعف الصبيب في أعالي الجبال، كل أحاديثنا صار الوباء محورها الأساس، ونتساءل في كل يوم عما تقوم به الدولة من تحضيرات لمواجهة هذا الوباء الذي حاصرنا من كل جانب، أوروبا، أمريكا، وكذلك بعض الدول العربية، قبل شهر فقط عدنا للعمل مستمرين في تقديم الدروس لتلامذتنا وكذلك الحال بكل المدارس في البلاد، واليوم ها نحن نقف أمام أول حالة مؤكدة إصابتها بفيروس كورونا، نعم أول حالة تكتشف بالمغرب لمهاجر عائد إلى أرض الوطن، ومن المؤكد أن لهذا المهاجر مخالطين تواصلوا معه في طريقه إلى هنا منهم من قد يلتقط العدوى، موقف رسم أمامنا خيارين الأول أن نستمر في العمل والتحرك كما كنا غير مبالين بتفشي الوباء، والثاني أن نعلن حالة حجر ونوقف كل أعمالنا أملا في خنقه والحد منه.

- لقد تم اكتشاف أول حالة مؤكدة. قلت
- نعم سمعت بذلك، اللهم احفظنا يا رب. أجابت ربيعة.
- هل ستستمر المؤسسات التعليمية في العمل يا ترى؟ تساءلت أمال
- لا أدري، لكن إلى حدود الساعة ليست هناك أخبار. ردت زينب
- في نظري المؤسسات التعليمية هي مكان تجمع كبير إذا ما ظلت مفتوحة فهذا يعني أنها مشروع بؤر سيصعب السيطرة عليها لاحقا. أضفت
- نعم بالإضافة إلى المصانع والشركات. تحدثت ربيعة.
- حسنا سنرى ما الذي سيتم اتخاذه من إجراءات، لابد أن هناك خطة. تدخلت زينب

عدنا إلى الأقسام بعد استراحة دامت 10 دقائق، لقد اختلف الوضع عما كان من قبل، فبعد أن كانت مستجدات الوباء هي آخر ما قد نتحدث به صارت لها الأولوية القصوى، بل انتقلت هذه المستجدات لتكون مادة خام لعروض داخل الأقسام لجميع التلاميذ قصد التوعية، بالإضافة إلى ملصقات وصور تبين كيفية انتشار الوباء وكيفية الوقاية منه وأعراضه كذلك، وما هي إلا أيام حتى صار غسل اليدين داخل المؤسسة بالماء والصابون أمر واجب، يحرص عليه كل أستاذ وأستاذة داخل المؤسسة في كل مرة يغادر فيها أحد التلاميذ القسم. صار الهم الوحيد أن نحافظ على سلامتنا و سلامة تلامذتنا وفي نفس الوقت كان تفكيرنا لا يخلو من تخوفات حول حالة أسرنا بتازة، أمال تتصل بأبنائها يوميا لتسأل عنهم وتوصي بأخذ الحذر، ربيعة كل تفكيرها مع والدتها التي تعاني من مشاكل صحية مسبقا والفيروس بالنسبة لها يضعها في خطر محدق.

15 من آذار (مارس) 2020

خمسة عشر يوما كانت كافية ليرتفع عدد الإصابة إلى 28 حالة بالمغرب، عدد كان كافيا هو الآخر لتعلن وزارة التربية والتكوين عن وقف الدراسة ابتداء من 16 آدار (مارس) 2020، سمعنا بالخبر ولن أنكر أنني كنت فرحة جدا بعودتي إلى تازة خاصة مع قرب شهر رمضان، وكذلك الحال عند أمال وربيعة وزينب، رغم علمنا أن الوضع قد يتأزم أكثر إذا ما انتشر الوباء في أرجاء البلاد إلا أننا لم نستطع إخفاء فرحتنا تلك، خرجنا جميعا إلى ساحة المدرسة فور الإعلان عن توقيف الدراسة حوالي التاسعة ليلا، وما هي إلا دقائق حتى عادت كل واحدة منا إلى سكناها لجمع حقيبتها.

دخلت غرفتي وأنا أبتسم، فتحت حقيبتي السوداء وبدأت أضع فيها كل ما قد أحتاجه من ملابس وحاجيات، أشتاق لغرفتي، لصديقتي، لأختي الصغرى وابنتها الجميلة، لسيارتي، أشتاق لتازة مدينتي، أخذت نفسا عميقا وخلدت للنوم هروبا من مشاعري المتضاربة.

عبد الرحمان ينتظر بباب المؤسسة، اتفقنا معه هذه المرة على أن يوصلنا إلى "أحد امسيلة" لنواصل الرحلة إلى تازة بسيارة الأجرة، رميت جسدي النحيل بالكرسي الخلفي للسيارة، ووضعت سماعة الهاتف بأذني وانطلقت في تأمل الجبال المحيطة بنا طول الطريق على صوت فيروز تارة وجوليا بطرس تارة أخرى، فيما دخلت أمال وربيعة في حوار مع عبد الرحمان حول أسباب توقيف الدراسة والوضع العام للوباء في أنحاء العالم، عبد الرحمان بالرغم من أنه لم يتمم دراسته إلا أنه يبدو إنسانا واعيا من خلال نقاشاته معنا في كل مرة يقلنا فيها. استمرت الرحلة حوالي ساعة ونصف لنصل ل "أحد امسيلة"، حيث قررنا أن نتناول وجبة غداء خفيفة من اللحم المفروم والفلفل الحار (الغياتية) اعتدنا على تناولها هنا بالذات. دقائق فقط وعدنا للبحث عمن يقلنا ثانية لنكمل رحلتنا إلى المدينة الضائعة، وعدت إلى تأملي من جديد.

والدتي في الانتظار تجلس بباب المنزل إلى جانب جارتيها ثرية ونزهة، تتبادلن الحديث في مواضيع مختلفة، وصلت متعبة، ألقيت السلام ودخلت البيت متجهة مباشرة إلى أقرب أريكة لأسقط فوقها، انتظرت والدتي قليلا ثم أحضرت طعام الغداء، مهما تناولت وتذوقت من أطباق تظل أطباق والدتي هي الألذ، واليوم حضرت لي أحبها إلى قلبي، طبق الدجاج والبطاطس المقلية مصحوب بالسلطة والفلفل الحار، جلست إلى المائدة وأنا أتساءل لما اختارت أمي أن تحضر هذه الأطباق بالذات في اليوم الذي تناولت فيه الغذاء خارج البيت؟ ! تناولت القليل فقط وطلبت منها أن تحتفظ لي بالبقية، طبعا لا يمكن أن أتجاوز أكلتي المفضلة.

- هل توقفت الدراسة بشكل كلي؟ سألت والدتي.
- نعم، هذا ما حدث. أجبت

- إذن لن تعودوا للعمل مجددا. أضافت أمي
- في الحقيقة لا أعرف، قد نعود وقد لا نعود هذا متوقف على الحالة الوبائية بالمغرب. وضحت
- حسنا لا بأس المهم أن ترتاحي قليلا وتصومي رمضان معنا. قالت
- آمل ذلك، لكن العمل سيستمر فالتوقف عن الدراسة لا يعني التوقف عن العمل، سنستمر بتقديم الدروس عن بعد.
- عن بعد؟ كيف؟
- عن طريق التواصل مع التلاميذ من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، وتسجيل فيدوهات ونشرها.
- لكن هذا يحتاج إلى شبكة أنترنيت، هل التلاميذ بالقرية لديهم هذه الامكانية؟
- لا، ولا أعلم كيف سيتم التعامل مع ذلك إلى حدود الساعة.

اليوم..

17 من حزيران (يونيو) 2020

تأتيك فترات لا تستطيع فيها حمل القلم أو فتح مذكرة، لا تستطيع كتابة ولا كلمة مهما كانت بسيطة وواضحة، وقد تأتيك لحظات أخرى تنهال عليك الأفكار والكلمات فتنهمك في الكتابة حد التخمة.

غبت كثيرا عن مذكرتي الصغيرة لكنني عدت مجددا، استيقظت اليوم وأنا أفكر وأتساءل ترى هل يمكن لمناعة القطيع أن تكون أقوى من عقلية القطيع لدينا؟ انتقل المغرب منذ حوالي أسبوعين من مرحلة فرض حالة الطوارئ والحجر الصحي إلى الرفع الجزئي له، بدأ الأمر برفع الحجر بالمدن التي استطاعت التغلب على الوباء والحفاظ على 0 حالة مدة معينة، وكذلك تم رفع حالة الطوارئ والسماح بالتنقل بين هذه المدن التي أطلق عليها "المنطقة رقم 1"، بينما ظل الوضع على ما هو عليه بالنسبة لباقي المدن التي لم تستطع تجاوز المحنة و أطلق عليها "المنطقة رقم 2".

- أتذكرك هذه التصنيفات بشيء ما سبق ورأيناه؟ سألت
- أي نعم، أتذكر هذا جيدا ههه. أجابت أسماء
- رباه أين سمعت بهذا؟ تساءلت
- Hunger Games أتتذكرين هذه السلسلة؟ سألتني أسماء
- أجل.. أجل تذكرت بالتأكيد. أجبت ضاحكة

كان الوضع بالنسبة لنا مفرح جدا، فمدينة تازة تعد داخل نفوذ المنطقة 1، وهذا يعني أنه بإمكاننا التجول وممارسة الرياضة صباحا، يمكننا كذلك الخروج إلى المنتزهات بالمدينة لقضاء بعض الوقت وسط الطبيعة، كذلك العودة إلى العمل بشكل تدريجي، ببساطة الخروج من حالة الركوض التي كنا نعيشها إلى حالة الحركة، وبالتالي تجاوز الملل الذي كنا نعيشه طيلة فترة الحجر الصحي. لم أفكر كثيرا في ما سأقوم به، فورا حضرت سيارتي المتوقفة منذ مدة طويلة وعاينتها، ثم بدأت في ترتيب نزهة مع أسماء، هذه النزهة التي كانت بالنسبة لي فرصة للاحتفال بعيد ميلادها الذي مر بالثالث عشر من نيسان (أبريل) 2020، ولأنه حل في مرحلة لم نستطع فيها الاحتفال فكرت في تعويض ذلك.

في نفس الفترة تواصلت مع كل من وفاء وفاطمة الزهراء اللتان اقترحتا أن أذهب معهما في نزهة هما كذلك، أعدت ترتيب برنامجي واتفقت معهما على أن نذهب صباح الغد إلى "منتزه تازكة" لقضاء اليوم هناك، بينما تركت نزهتي مع أسماء لليوم التالي الذي يصادف يوم السبت وهو يوم عطلة بالنسبة لها. وفاء كذلك حل عيد ميلادها في ذات الأسبوع، وفاطمة الزهراء أرادت بشدة أن نحتفل به، لم أعترض عن الأمر فوفاء صديقتي مثلما هي صديقتها، حضرنا معا للمفاجأة، اشترينا الهدايا، وأحضرنا قالب الحلوى كذلك، وهكذا صرنا على أتم الاستعداد للذهاب.

18 من حزيران (يونيو) 2020

استيقظت في الصباح الباكر كعادتي، تناولت وجبة فطور خفيفة أكثرت فيها من شرب القهوة، وضعت ما نحتاج إليه في السيارة واتجهت إلى "حي الملحة" للقاء فاطمة الزهراء و وفاء، انتظرتهما طويلا ولن أنكر أنني غضبت قليلا لتأخرهما لكنهما في النهاية أتيتا وهذا هو المهم، أدرت المفتاح وانطلقنا.

- هل لديكما أية فكرة عن عدد المصابين في باقي المدن هذه الأيام؟ سألت فاطمة الزهراء
- في الحقيقة لم أعد أهتم بالموضوع كما كنت في السابق، مللت من تتبع الأعداد. أجبت
- معك حق الوضع ممل فعلا. أضافت وفاء.

ثلاثون دقيقة كانت هي الفاصلة بيننا وبين المدينة الضائعة ونحن بالمنتزه، أرسلنا وفاء تختار لنا طاولة فيما اتفقت وفاطمة الزهراء عن كيفية تقديم المفاجأة ثم التحقنا بها، مر اليوم بشكل رائع وفرحة وفاء كانت مدهشة، ظلت تبتسم طوال الوقت. تناولنا طعام الغذاء وأخذنا وقتا للراحة والاسترخاء في هدوء الطبيعة بقية اليوم، لنعود بعد ذلك مرة أخرى إلى الجو المعتاد وضجيج السيارات.

اتصلت فور وصولي إلى البيت بصديقتي أسماء لأؤكد على موعدنا، واتصلت مرة أخرى بصديقنا حسام الذي كنت آمل أن يرافقنا حتى نستمتع معا، وفي ذات الوقت أحضرت قالب الحلوى وحضرت كل ما قد نحتاجه للغد، فكرت بأدق التفاصيل كما هي عادتي، وانتظرت الغد بفارغ الصبر حتى أني نمت باكرا كي يمر الوقت بسرعة كطفلة تنتظر يوم العيد.

Il n’y a rien de plus beau que d’être avec des gens qui t’aiment simplement parce que tu es toi.

19 من حزيران (يونيو) 2020

صباح الخير

"في الحياة نعمتين: الكتب والأصدقاء؛

وعلى المرء أن يمتلك هذين الشيئين على نحو مختلف، أكبر عدد من الكتب وقلة من الأصدقاء".

إليف شافاق

كطفلة في الرابعة أو الخامسة استيقظت متحمسة كثيرا لنزهة اليوم، ارتديت ملابسي بسرعة البرق، وحملت كل الحاجيات وانطلقت، لم يمر الكثير من الوقت حتى كنت وأسماء بمنتزه "مرطيشة" الذي يبعد عن أحد امسيلة بحوالي أربعة كيلومترات، أخذنا مكاننا بعد أن قمنا بجولة تفقدية للتعرف على المكان، تناولنا وجبة الفطور متأخرين، لأبدأ بعدها مباشرة في فتح علب الحلوى بينما أسماء كانت تقوم بتصوير اللحظة، فتحت العلب الصغيرة التي كانت تحتوي على قطع حلوى على شكل أوجه تبتسم، وتطلعت بأسماء لأرى ابتسامة عريضة وعلامة تعجب على محياها، أحسست فعلا أنها فرحة بكل ما يحيط بها، تناولت العلبة الكبيرة لأفتحها، كانت تحتوي حلوى عيد الميلاد التي كتب عليها بخط جميل جدا "عيد ميلاد سعيد أسماء"، حلوى حضرت أساسا من الشكلاطة السوداء والكراميل، أحبت صديقتي كل هذا وسعدت به وزادت سعادتها أكثر عندما لاحظت تواجد أرجوحة بالمنتزه، كنت أراها كطفلة تنتظر فقط اللحظة المناسبة لتتمسك بلعبتها وتشرع في اللعب دون توقف، مر الوقت بسرعة، فاللحظات الجميلة والسعيدة والهادئة غالبا ما تمر بسرعة البرق دون توقف، لهذا اعتدنا أن نخطفها ونجمدها في صورة أو مقطع فيديو.

- ما رأيك في إطفاء الشموع الآن؟ سألت
- حسنا أنا مستعدة. أجابت أسماء مبتسمة.

أشعلت الشموع ورددنا عيد ميلاد سعيد أسماء ثم تمنت أمنية وأطفأتها، لتنتقل إلى تقطيع الحلوى، كانت أول قضمة لي والثانية لأسماء، وبعدها نادينا على الأطفال الغرباء للاحتفال معنا وتذوق الحلوى اللذيذة.

- هل أعجبك الاحتفال والمكان؟ سألت
- أعترف أن هذا هو أجمل عيد ميلاد احتفلت به في حياتي. أجابت أسماء
- جميل، هذا ما كنت أسعى إليه، أن نقوم بشيء مختلف ومميز. قلت
- لقد فعلت ذلك حقا.

أخذت أسماء قسط من الراحة قبل أن نجمع حاجياتنا من جديد للعودة إلى المدينة الضائعة، هذه المدينة التي توقفت منذ مدة عن تسجيل حالات للوباء، لقد تطهرت بشكل كامل لكن هذا لا يعني أبدا أننا قد انتهينا، هناك مدن أخرى مازالت تسجل كل يوم حالات مؤكدة جديدة وهذا يعني أنه في أي لحظة قد تأتينا حالات جديدة من خارج المدينة خاصة بعد رفع الحجر وتسهيل التنقل بين المدن.

عدت إلى البيت، هذا البيت الذي وجدته فارغا بعد خروج والدي هروبا من حره، أخذت حماما باردا وجلست ألاعب هاتفي وأشاهد الصور التي التقطناها.

- لم نتحدث منذ مدة، أمنشغلة إلى هذه الدرجة؟ سأل بدر عبر رسالة نصية
- كنت منشغلة قليلا حقا. أجبت
- وهل انتهيت الآن؟ سأل مجددا
- الانشغالات لا تنتهي، فقط هناك أوقات نهرب فيها. أجبت
- وهل من وقت لي ولو القليل منه؟ سأل مستنكرا
- أحاول. أجبت مقاطعة

وضعت الهاتف بعيدا، أغمضت عيني إلزاما، ونمت.

قبل أشهر...

25 من آذار (مارس) 2020

أعلنت وزارة الصحة المغربية عن تسجيل 55 حالة إصابة جديدة وحالة وفاة وحالة شفاء، ليرتفع عدد الإصابات إلى 225 حالة مؤكدة و سبع حالات شفاء وست حالات وفاة.

" أيكون الملل والضياع والرتابة جزء من مواصفات الشيخوخة، أم من مواصفات هذه المدينة؟

تراني أنا الذي أدخل الشيخوخة.. أم ترى هذا الوطن بأكمله هو الذي يدخل سن اليأس الجماعي؟

أليس هو الذي يملك تلك القدرة الخارقة، على جعلنا نكبر ونهرم في بضعة أشهر، وأحيانا في بضعة أسابيع فقط؟

قبل اليوم لم أكن أشعر بثقل السنين. كان حبك شبابي، وكان مرسمي طاقتي الشمسية التي لا تنضب، وكانت باريس مدينة أنيقة، يخجل الواحد من أن يهمل منظره في حضرتها.. ولكنهم طاردوني حتى مربع غربتي، وأطفأوا شعلة جنوني.. وجاؤوا بي حتى هنا.

الآن نحن نقف جميعا على بركان الوطن الذي ينفجر، ولم يعد في وسعنا، إلا أن نتوحد مع الجمر المتطاير من فوهته، وننسى نارنا الصغيرة.

اليوم لا شيء يستحق كل تلك الأناقة واللياقة، الوطن نفسه أصبح لا يخجل من أن يبدو أمامنا في وضع غير لائق".

ذاكرة الجسد، أحلام مستغانمي.

الكل يائس، عدد الإصابات في ارتفاع متزايد، والدولة تعمل على وضع خطة لتقديم إعانات للمحتاجين، كما تعمل وزارة التربية والتكوين على وضع خطة لتجاوز الفشل الدراسي والسنة البيضاء، الحجر الصحي والالتزام بالبقاء في البيت يبدوان الوسيلة الوحيدة لإبقاء الوضع تحت السيطرة، عدد الأسرة على الصعيد الوطني محدود لدرجة كبيرة ولا يحتمل أن تتزايد الأعداد على مستوى الإصابات، ونحن هنا نشاهد كل هذا وكأننا في فيلم الخيال العلمي "Contagion"، هذا الفيلم الذي تم إخراجه من طرف "ستيفن سودربرغ" إنتاج سنة 2011، صار الآن الكل يتحدث عنه منذ تفشي فيروس كورونا والإعلان على أنه وباء عالمي، وحتى من لم يشاهده تحمس أكثر لمشاهدته بعد أن سمع بأن هذا الأخير قد تنبأ بتفشي فيروس يصيب الجهاز التنفسي، وينتقل عبر السعال والعطاس أي ببساطة عبر الهواء، وكذلك كنت متشوقة لأعرف قصة الفيلم ولن أنكر انني كنت متشوقة أكثر لمعرفة النهاية. تحكي القصة أن هناك وباء قد ظهر بفعل فيروس ينتقل عبر اللمس والهواء، تكون بدايته في هونغ كونغ حيث تقوم جرافة لإحدى الشركات بإزالة بعض الأشجار وتزعج الخفافيش، التي تأخذ الطعام من شجرة موز،

هذا الموز الذي يسقط من الخفاش بكمية كبيرة أثناء طيرانه فوق خنزير، يأكل الخنزير الموز ومباشرة بعد ذلك يشتريه طاه يقوم بذبحه ودون أن يغسل يديه أو ينظف نفسه يلقي التحية على "بيث إيمهوف" التي تعد من العملاء، فينقل بذلك الفيروس إليها وتبدأ من هنا سلسلة العدوى والانتقال لتصل إلى كل بقاع العالم، تتوالى الأحداث ويتوصل العلماء إلى لقاح بعد وفاة الكثيرالكثير من الناس وإصابة الملايين عبر العالم، هذا اللقاح الذي لا يمكن أن يستجيب ويلبي الطلب بشكل كامل، لذا يعتمد مركز السيطرة على الأمراض التطعيمات من خلال يانصيب تاريخ الميلاد.

- مهلا هل يذكركم هذا بشيء ما؟

نعم، الخفافيش التي نسب إليها أصل فيروس "كورونا المستجد" من طرف الكثيرين، خاصة وأن بداية الوباء كانت في سوق لبيع لحوم الحيوانات بإحدى مدن الصين، وعندما أقول الحيوانات فأنا أقصد أن كل ما يتحرك فوق الأرض قابل للأكل.

ويبقى السؤال: إذا كانت البداية واحدة وكيفية انتشار وانتقال الفيروس في أحداث الفيلم تتشابه وأحداث العالم اليوم مع فيروس كورونا، مما جعل الكثيرين يرون أن الفيلم كان بمثابة نبوءة قد تحققت بعد حوالي عشر سنوات من إنتاجه، الآن هل النهاية ستكون متشابهة حقا ونهاية أحداث الفيلم كما تشابهت البدايات؟ هل سيتوصل العلماء إلى لقاح؟ وإن توصلوا إليه كيف سيتم التعامل معه على مستوى التوزيع؟

فكرت كثيرا، تساءلت كما تساءل الجميع لكن لا أظن أن هناك من يمتلك جوابا في الوقت الراهن، العالم يغرق ويتخبط بين خسارة وأخرى، ونحن نحاول ونعمل على أن نعيش.

اليوم..

26 من تموز (يوليوز) 2020

بعد مدة من رفع الحجر الصحي والسماح بالسفر بين المدن، تفاجأنا جميعا باتخاذ الحكومة لقرار منع التنقل مجددا، تم الإعلان عن القرار ليلا على أن يشرعوا في تنفيذه اليوم الموالي.

لم يكن لي علم بالموضوع لولا أن رأيت منشورات على صفحات الفايس بوك تنتقد هذا القرار، خاصة مع اقتراب عيد الأضحى الذي لم تعد تفصلنا عنه سوى أيام قليلة، ورغبة الكثيرين في العودة إلى منازلهم لحضوره إلى جانب عائلاتهم وأسرهم. أربع وعشرون ساعة تفصلهم على إغلاق المدن ومنع التنقل، أربع وعشرون ساعة وقت ضيق جدا لجمع الحقيبة وتلك الحاجيات البسيطة للعودة، الكل يسارع لركوب سيارته أو الالتحاق بمحطات الحافلات وسيارات الأجرة، الكل يركض، والطرقات السريعة منها والوطنية في ازدحام تام وفوضى عارمة، عشرات الحوادث هنا وهناك، جرحى يتخبطون في دمائهم وموتى ودعوا الحياة في اشتياق لقضاء يوم واحد مع من يحبون، كانوا يسارعون الوقت للوصول دون أن يدروا أن الوقت هو الآخر يسارع للفظهم خارجه في غفلة من الجميع حتى الوباء اللعين.

- ترى أيهما أخطر فيروس كرونا أم قرارات الدقائق الأخيرة؟

صديقي حسام تمكن من العودة لقضاء ما تبقى من العطلة إلى جانب أسرته، لكن بدر لم يستطع ذلك بالرغم من أنه اشترى تذكرة إلا أن موعدها كان متأخرا جدا، لم يتمكن من السفر للعودة إلى حضن والدته التي اشتاقت له كثيرا، وكثيرون هم مثله لم يستطيعوا الالتحاق بعائلاتهم، كل هذا له طعم خاص لكن الأكثر قساوة من فقدوا حياتهم وهم يحاولون، من رحلوا إلى الأبد وهم في طريق عودتهم. كل هذه الأزمات المتوالية والقرارات الحاسمة والتي وصفها الكثيرون بالارتجالية بررتها الحكومة بأنها جاءت رغم صعوبتها لتكون في مصلحة المواطنين، جاءت لتفرض على الكل البقاء حيث هو دون الحاجة للتنقل من مدن لأخرى، وبالتالي التعرض لخطر نقل الفيروس من جديد وانتشاره في موجة ثانية يصعب التحكم فيها، لكن مادامت قلوبهم معنا إلى هذا الحد لما قدموا أربعا وعشرين ساعة على طبق من ذهب لملك الموت؟ ! ما دامت قلوبهم معنا فلما نلمس في كل مرة أن قراراتهم علينا يا ترى؟ !

"إنهم لا يهتمون بنا إن كنا سنموت أو سنعيش"

هكذا تحدث بدر في منشوره يومها.

31 من تموز (يوليوز) 2020

"نحن الموقعون أدناه ليس لنا أي علاقة بالمدعو "عيد سعيد" لا من قريب ولا من بعيد...

والله على ما أقول شهيد.."

ناجي العلي

العيد، هو يوم تجتمع فيه الأسرة كاملة، يستيقظ الجميع في الصباح الباكر ليحضروا مراسيم ذبح "كبش العيد"، يسارع الأب لينتهي من عملية السلخ، وبعدها تشرع الأمر في غسل الكبد وما يصاحبها وتحضيرها للشواء، يجلس الجميع إلى الطاولة لتناول وجبة الفطور المكونة أساسا من الشاي والشواء، فيما تحضر (الكرشة/الدوارة) للطهي من أجل وجبة الغذاء، قد تختلف العائلات فيما يقدمونه أو يؤخرونه من مأكولات كل حسب تقاليدهم وعاداتهم، لكن غالبا ما تسير الأمور على هذا النحو. عادة كان اليوم يمر بطعم التهاني ورائحة الشواء المنتشرة في الأرجاء، لكن اليوم الأمر يختلف، اليوم نعيش عيدا بطعم الكورونا، نعيش عيدا بطعم الموت والموت واحد سواء أكان في غرفة الإنعاش نتيجة ضيق التنفس وتوقف الرئة، أو كان في الشوارع نتيجة الاكتظاظ والازدحام والتسرع، الموت واحد سواء فقدت أبا أو أخا، أما أو أختا، الموت واحد سواء أصابك أو أصاب من حولك، الموت واحد مهما تعددت الأسباب في النهاية تراهم يرحلون وأنت تقف دون حراك، تقف أمامهم تنظر إليهم ويداك مكبلتان، لا تستطيع فعل شيء، لا تستطيع تغيير شيء، في عجز تام فقط تشاهد من بعيد وتنتظر أن يعصف بك أنت أيضا ليشاهدوك من بعيد. من يدري؟ ربما هذا العجز نفسه هو ما دفع الكثيرين إلى الانتحار، وهو نفسه ما دفع رجلا لذبح زوجته وطعن عائلته واحدا واحدا قبل أن يطعن نفسه في يوم عيد، ربما هذا العجز نفسه جعلنا جميعا نتجاوز خوفنا من الفيروس تهكما واستهزاء تارة، وعصيانا وعنادا بعدم التصديق بوجوده تارة أخرى.

- كيف حالك؟ سألت عل الهاتف
- بخير وأنت؟ أجاب بدر
- بخير. كيف مر يومك؟ سألت مرة أخرى
- قضيت اليوم نائما فقط. أجابني بنبرة حزن وأضاف: وماذا عنك؟
- لا شيء قضيته في المطبخ أساعد والدتي.
- بالمناسبة والدتي كانت تود الاتصال بك لكنني أخبرتها بأنك ستتصلين أنت فيما بعد.
- لا بأس، سأتصل بها لاحقا، حسنا سأتركك الآن يبدو أن أختي تطرق الباب.. إلى اللقاء.
- لا عليك.. إلى اللقاء.

5 من أغسطس (غشت) 2020

تمر الأيام بسرعة عندما يتعلق الأمر بشخص على مشارف الموت، وتمر ببطء شديد عندما يتعلق الأمر بشخص لا يجد لقمة العيش ليوم واحد، يمر الوقت بسرعة عندما تأتيك اللحظات السعيدة، ويمر ببطء شديد عندما تتراكم عليك المصائب والأحزان، لكن ماذا عن الوقت الآن؟ ماذا عنه عندما صار المعالِج قيد العلاج؟

تازة تعلن عن إصابة أطر طبية وتمريضية بفيروس كورونا.

هكذا قرأت الخبر المكتوب بالبند العريض، نعم، الصفوف الأولى المقاتلة ضد الوباء بالمدينة اليوم تعلن إصابتها، إعلان جاء وسط إعلانات كثيرة بتزايد عدد الإصابات بالكثير من المدن المجاورة، حتى تلك التي لم تكن قد سجلت أي حالة من قبل أو تم شفاء جميع الحلات بها تغير حالها، وبدأت تظهر إصابات تلو الأخرى دون توقف. كل هذا سيء أجل الجميع يعلم ذلك لكن الأسوأ أن يجعل الفيروس من مستشفى ابن باجا الذي يعد المستشفى الرئيس بالمدينة هذا إن لم نقل بالإقليم مستعمرة له، وينخر بكل قوة ليبعثر الصفوف الأمامية لأطر الصحة. كيف لا يفعل ذلك أمام الفقر الكبير الذي يعاني منه هذا (المستشفى)، فقر تجلى بشكل واضح مع انتشار الفيروس واكتشافه بالمدينة أول مرة، لا أطر كافية لعدد الساكنة ولا آليات اشتغال أو وسائل، نقص انطلقت بكشفه حناجر مناضلين من الأطر هنا وهناك مطالبين بأبسط الحقوق وأبسط الشروط التي تضمن سلامتهم وسلامة المواطنين.

وأتساءل أمام كل هذا: ماذا لو لم يعد جناح العزل يعزل شيئا؟

- أسمعت آخر الأخبار عن ظهور إصابات في صفوف أطر الصحة؟ سألت
- أجابت أسماء: نعم، سمعت بذلك بالتأكيد.
- ماذا لو خرج الوضع عن السيطرة؟ تساءلت
- إن ظلت الأمور على حالها أمام عدم وعي الساكنة بالخطورة التي تحوم حولهم، لا أظن ستكون هناك سيطرة من الأساس.
- إذن حاولي صديقتي أن تقي نفسك، استغلي كل ما يمكن أن يساعد على ذلك.
- ها نحن نحاول.

انتهى حديثي إلى أسماء، وضعت الهاتف جانبا، ورحت أتحدث إلى والدي وألاعب ابنة أختي الصغيرة "هداية" وأفكر فيما قد أعده لها بمناسبة عيد ميلادها المؤرخ بالسادس من أغسطس (غشت)، وما هي إلا دقائق حتى اتخذت القرار. خرجت مساء متوجهة إلى أحد المحلات التجارية وقمت بشراء كل ما يلزم من حاجيات للتزيين، لأمر بعد ذلك بمحل آخر لأوصي بتحضير حلوى عيد الميلاد، هذه لحلوى التي اخترت

أن تكون مميزة جدا بوضع صورة لها على واجهتها. أحبت أمي الفكرة وكذلك أختي "سهير" كما أحبها زوجها وكل العائلة. في الآونة الأخيرة لم نعد نسعد بشيء وحديثنا أغلبه يصب في موضوع واحد انتشار الوباء وارتفاع عدد الإصابات خاصة بعد العيد، هذا العيد الذي طالب الكثيرون بإلغائه لأنه بمثابة انتكاسة بالنسبة للفقراء من جهة، ومن جهة أخرى بمثابة ضربة حظ للفيروس في الانتشار.

- كيف ستتعامل وزارة التربية والتكون الآن؟ سألت والدتي
- لا أدري قد تستمر في التعليم عن بعد، وقد نعود للتعليم الحضوري بشكله الطبيعي. أجبت
- لكن التعليم عن بعد أثبتت التجربة أنه لا يصلح، فالكثير من الأطفال لم يستفيدوا منه نظرا للبعد في القرى أو ضعف الحال. تساءلت أمي
- ليست لدي إجابة أمي حقا، لا أملك شيئا.

6 من أغسطس (غشت) 2020

"هداية" أميرتنا الصغيرة هي عروس اليوم، الكل يحضر للمساء والاحتفاء، الكل يعمل على أن يكون كل شيء في مكانه المناسب، و"هداية" الصغيرة تلعب غير مبالية. الساعة تشير إلى السادسة مساء، ركبت سيارتي وإلى جانبي "سهيلة" ابنة خالي التي تبلغ من العمر الستة عشر عاما، كانت وجهتنا واحدة لإحضار قالبي الحلوى أحدهما بالشكولاتة والكراميل والثاني بالفانيلا والليمون، ربع ساعة كانت كافية لنكون في طريق العودة مسرعتين حتى لا تضيع منا الحلوى بفعل الحرارة، ومباشرة إلى المبرد لنحافظ عليها، ومن تم شرعنا معا في تزيين الغرفة بالبالونات والأشرطة الملونة، وما هي إلا ساعة واحدة حتى كانت العائلة مجتمعة و"هداية" ترتدي ثوب الأميرات وتضع قبعة عيد الميلاد على رأسها، تتمايل هنا وهناك وتلاعب الجميع دون أن تري أننا نحتفي بعيد ميلادها الأول، تلعب وتركض في الأرجاء، تصرخ تارة وتضحك تارة أخرى، وها هي اللحظة التي ينتظرها الجميع، جلست أختي سهير ممسكة بابنتها الصغيرة وإلى جانبها جلس زوجها، وضعت أمامهما قالبي الحلوى وزينتهما بشمعتين صغيرتين، وما هي إلا دقائق من أخد الصور التذكارية حتى أطفأت هداية أول شموعها، طبعا بمساعدة والديها، ثم قاما بتقطيع أول قطعة ومن تم تركا الباقي لي، أوزع القطع الصغيرة على أفراد العائلة واحدا واحدا في جو من المرح العائلي. تناولنا وجبة العشاء معا عائلة واحدة بدعوة من أم إبراهيم زوج أختي، قبل أن نعود إلى بيتنا لنخلد للنوم متعبين من يوم تميز بالكثير من الحركة.

في هذه الأثناء وخلال اليوم كان الوباء يحتفل هو الآخر بتزايد عدد الإصابات في أنحاء العالم عامة، والوطن خاصة، ظهور بؤر داخل الشركات التي كانت قد باشرت عملها عند رفع الحجر بالمدن الكبرى، إضافة إلى البؤر العائلية، وأشد ما كان يرهق تفكيرنا نحن أسرة التعليم هو كيفية التعاطي مع هذه الظروف والشروط الجديدة، كيف يمكن أن أبلغ رسالتي وأقدم دروسي في غياب تام للوسائل التي تساعد على ذلك بالنسبة للتلاميذ خاصة، لا شبكة، لا حواسيب، لا هواتف ذكية، وفي كثير من الأحيان لا تغطية حتى، والمؤلم ليست هذه الحالة هي الاستثناء بل القاعدة.

لم أعد قادرة على القراءة أو ملاحقة الأخبار أكثر، كتبت آخر سطر، أغلقت الحاسوب، ونمت.

قبل أشهر...

26 من آذار (مارس) 2020

كل المؤشرات والإحصائيات تؤكد أنه قد خضع إلى حدود اليوم بالذات 1,7 مليار شخص في جميع أنحاء العالم للحجر على اختلاف أشكاله، أعلنت الوزارة الخارجية الصينية عن تعليق حاملي التأشيرات أو تصريح الإقامة وذلك بدء من 28 من آذار (مارس) 2020، وبالتالي فالراغبين في دخول الصين عليهم التقدم بطلب تأشيرات السفر من القنصليات والسفارات الصينية، ومن جهة أخرى بدأت الحكومة في تشجيع الشركات على إعادة فتحها بحلول 30 من أذار (مارس) 2020. يبدو الآن أن الصين تشفى وبدأت تعود إلى الحياة الطبيعية مع أخذ الحيطة والحذر. كوريا الجنوبية التي كانت قد أعلنت في 23 من شباط (فبراير) 2020 عن أعلى درجات الإنذار، وفي 28 من شباط (فبراير) 2020 أعلنت عن أكثر من ألفي إصابة وهي في ارتفاع كل يوم، صار برنامجها يعد الأفضل والأكثر تنظيما في العالم حيث اعتمدت الإبلاغ الذاتي الإلزامي.

ونحن؟ ماذا عنا؟

قبل يوم فقط أعلنت وزارة الصحة المغربية عن تسجيل 55 حالة إصابة مؤكدة جديدة ليرتفع العدد إلى 225 حالة، وها هي اليوم تعلن عن أربع وفيات جديدة ليرتفع عدد الوفيات إجمالا ل 10 حالات، وشفاء حالة واحدة، بينما تم تسجيل 50 حالة إصابة جديدة ليرتفع العدد الإجمالي بذلك إلى 275 حالة مؤكدة، وطبعا العدد في تزايد وارتفاع مستمر كل يوم، وأمام كل هذا ليس لدينا سوى الكمامات آملين أن تحصر الرداد حتى لا يعدي أحدنا الآخر في حالة الإصابة، مع التمسك بحالة الطوارئ المعلن عنه إلى غاية 20 أبريل.

شهر آخر لا يسمح لنا بمغادرة المنزل إلا للضرورة، الملل من جهة والجائحة من جهة وتدابير الحكومة من جهة، أي نصيب هذا؟ ! توقفت عن التحدث إلى الأصدقاء على مواقع التواصل الاجتماعي، حتى أسماء لم أتواصل معها منذ مدة، أمضي اليوم في غرفة مغلقة أشاهد فيلما أو أدون بعض السطور على مذكرتي وبين هذا وذاك أستمر في النوم حتى لا أكسر ما حولي من أشياء.

لا عمل، لا تجوال، لا إبداع، فقط لا شيء.

1 من نيسان (أبريل) 2020

لم تخلو كذبة أبريل من أثر الكورونا هي الأخرى، استيقظنا جميعا على أخبار إيجاد لقاح للفيروس، لكن طبعا لم يكن لذلك أي دليل يؤكده، الشيء الوحيد المؤكد هو انتشار الوباء بشكل أكبر داخل الوطن وخارجه، انتشار تقابله عدة مواقف متباينة بين من يرى أن كورونا مجرد إشاعة فقط ولا وجود لهذا الوباء حقيقة، وبين من يصدق بوجوده لكنه يؤكد على أن هذا الوباء هو عبارة عن سلاح بيولوجي خرج عن السيطرة، في هذه الأثناء يواصل الوباء حصد الأرواح حسب الإحصائيات التي تقدمها وزارة الصحة كل يوم، 37 حالة وفاة بسب الفيروس، و642 حالة إصابة جديدة إجمالا، والكل صار يطرح السؤال: إلى أين نحن نسير؟ أيهما قد نختار الموت جوعا أم الموت وباء؟ !

بدأت التأثيرات الاقتصادية تتجلى أمامنا، ولا أقصد هنا تأثر الشركات بل تأثر الفقراء، العمال الذين توقفوا عن عملهم، التجار الصغار من أغلقت في وجههم الأسواق وضاعت بضاعتهم من بين أيديهم، كل فلاح ظل يخدم الأرض لتخدمه فيما بعد لكن الأمور سارت عكس التيار، أولئك من ضاع منهم مصدرهم الوحيد للقمة العيش وذلك حتى إشعار آخر دون أي دخل قار يحميهم من الموت جوعا، أولئك الذين جلسوا متعبين يرتعشون ألما وهم ينظرون إلى أطفالهم الصغار، يصرخون: "جعنا" ويسألون: "ألن نأكل اليوم يا بابا؟"، ينظرون إليهم وهم على حافة الانهيار، أيبكون أم يتمسكون بالكبرياء اللعين؟

استمرت الجائحة واستمرت تداعياتها هنا وهناك، وفي كل مرة كان الكبار يجتمعون ليقرروا مخيرين بين سيناريوهات تختلف لاختلاف نسبة الخسارة ومكمنها، كان هناك أناس صغار يجالسون أنفسهم مكبلين يفكرون في كل الطرق الممكنة للعيش موتا.

أنهيت آخر سطر من الماضي، وقررت ألا أعود إليه مجددا ففي الحاضر ما يكفي من الألم والمفاجآت والقرارات التي تجعلك في قمة انبهارك من شدة بؤسك.

ونستمر.. !

حتى إشعار آخر

اختزال

أيام فقط...

10 من أغسطس (غشت) 2020

أزمة كورونا لازالت مستمرة، والأعداد ترتفع بشكل مهول في العديد من المدن على الصعيد الوطني، صرنا نسجل كل يوم مئات الإصابات بعدما كنا لا نتعدى بضع إصابات متفرقة هنا وهناك.

استيقظت باكرا كعادتي لكنني فضلت البقاء في فراشي لأشاهد إحدى حلقات مسلسلي المفضل، مسلسل الخيال العلمي "Stargate SG1" الذي عشت معه قصة طريفة عندما كنت أدرس بإعدادية علال الفاسي، صادفته يوما على إحدى القنوات الألمانية على الساعة 18:15 بالضبط، أحببته كثيرا فصرت أسارع في كل مرة لأصل إلى المنزل في الوقت المناسب وأشاهد الحلقة من بدايتها، لا أذكر أنني فوت ولا حلقة أو مشهد حتى، وهو نفسه الذي من خلاله أحببت اللغة الألمانية، فكنت أخطف بعض الكلمات من خلال تتبع إشارات الممثلين وأبحث عن معناها لاحقا لأتأكد منه، واليوم بعد كل هذه السنوات ها أنا أعود إليه ثانية بنفس الحماسة لأشاهده مجددا. انتهت الحلقة، وضعت الهاتف في الشحن وغادرت الغرفة لتناول وجبة الفطور، كنت متحمسة كثيرا لزيارة أسماء مساء.

- أمي سآخذ حماما بسرعة وبعدها سأذهب لزيارة أسماء بالبيت. حدثت أمي
- حسنا لا بأس. أجابت

صارت الأمور واضحة أمامنا، سنعود إلى العمل بالرغم من الحالات التي تتزايد كل يوم، لكن على ما يبدو لا مجال لتوقيف الدراسة واعتبار السنة بيضاء، وفي ذات الوقت لا مجال كذلك لاعتماد الدراسة عن بعد بشكل قطعي نظرا لظروف الأهالي، خاصة منهم القاطنين بالقرى والبوادي، لدى فالتأرجح بين الدراسة الحضورية والدراسة عن بعد يبقى حلا ترقيعيا يتماشى وحالة كل جهة أو إقليم.

كل الدول تسارع إلى إيجاد لقاح مناسب، روسيا أمريكا، الصين، ألمانيا، كل الدول العظمى تسابق الزمن لإيجاد حل جذري للحالة التي صار عليها العالم اليوم، ونحن نشاهد المنظومة الصحية تنهار، نقوم بأبحاث محتشمة، ونستعد للمشاركة في التجارب السريرية للقاح.

ربيعة وأمال تخشيان العودة للعمل والاحتكاك مع الناس بوسائل النقل العمومية من جهة، ومن جهة أخرى الاحتكاك بأولياء أمور التلاميذ الذين يسافرون بكثرة وقد ينقلون العدوى، وزينب هي الأخرى هذه الأستاذة الجميلة واللطيفة جدا، تعرفت عليها عند التحاقها بالمؤسسة أول مرة موسم 2019/2018، انتقلنا حينها أنا وأمال وربيعة من فرعية العواودة إلى مركزية أهل مولة، فيما عوضتنا هي إلى جانب أستاذتين بالفرعية، لم أكن أتواصل معها في أول الأمر كثيرا، لكن بعد انتقالها بالموسم الثاني والتحاقها بالمركزية أخذت العلاقة معها تأخذ شكلا جديدا، تعرفت عليها أكثر، لمست في شخصيتها تلك الإنسانة المحبة للخير، والمعطاءة حتى أكثر من المتوقع أحيانا، لكن أهم نقطة لديها تلقائيتها التامة وعفويتها مع من تعرفهم حق المعرفة،

بالإضافة إلى نشاطها الدائم الذي ينتقل كعدوى بيننا عند لقائها والحديث إليها، تخرجنا جميعا من حالة الاكتئاب تلك والانزعاج لنضحك في الأخير عن أبسط الأشياء، إنها حقا قنبلة موقوتة في وجه كل المشاعر اليائسة والبائسة، تنتظر اللحظة المناسبة فقط لتنفجر فيها مبعدة إياها عنك، تنصت كثيرا وتتفهم أكثر نفسية من يحدثها. حسنا هذا الظاهر طبعا للجميع، لكن الخفي الذي قد لا يلمسه الكثير هو ذاك الحزن في الأعماق، أجل هناك حزن ما قابع في زاوية لا يتحرك، هناك جرح ما لا يريد الشفاء، تجاوزته لكنه يطفو من وقت لآخر.

من تراه جرحك كل هذا الجرح؟ من تراه أحزنك كل هذا الحزن يا زينب؟

من يدري قد يأثر عليها سحري في جعل الآخرين يبوحون يوما، وقد أعرف ما حدث !

3 من أيلول (سيبتمبر) 2020

غدا هو أول يوم بالعمل، تقررت أخيرا عودتنا للمدارس على أن يكون التعليم ذات نمط تناوبي، نقوم بتفويج الأقسام، وندرس كل يوم قسما واحدا مقسما إلى فوجين أ و ب، بينما القسم الثاني يدرس بالبيت ليأتي في الغد إلى المدرسة وهكذا. أصابكم الدوار أليس كذلك؟ لابأس هذا شيء طبيعي، كلنا أصبنا به في البداية قبل أن نركز الأمور في مكانها وننظم الوقت والعمل.

رافقت والدتي صباحا لشراء كل ما قد يلزمني طيلة المدة التي سأظل فيها بمقر العمل، وحال عودتي للبيت قمت بجمع حاجياتي وتحضير حقيبتي، وبعدها مباشرة خرجت لملاقاة أسماء حتى أودعها.

- حان وقت رحيلي. قلت
- لا عليك، الوقت يمر بسرعة. ردت أسماء
- يمر هنا، أما هناك فأشك في بعض الأحيان أنني أعيش داخل ثقب أسود.
- يا إلهي لما تصبحون أكثر كآبة كلما هممتم بالمغادرة للعمل؟ !
- أعدك أنني سأسألك ذات السؤال يوما ما.

مر اليوم بسرعة البرق، وحان وقت رحيلي عند الرابعة عصرا، نعم قررت وربيعة وكذلك زينب أن نلتحق بمقر العمل قبل موعد اجتماع الدخول بيوم، وذلك حتى نرتاح قليلا وننام جيدا. 10 دقائق كل شيء في مكانه، وأنا أجلس بين ربيعة وزينب، تارة أحدثهما وتارة أخرى أكتفي بالاستماع لهما وهما تتبادلان الحديث، بينما تجلس أم زينب أمامنا مباشرة إلى جانب السائق الذي اختار هذه المرة أن يقنن سرعته أكثر حتى لا يقع في المشاكل مع رجال الدرك الملكي. استرمت الرحلة حوالي ساعتين وربما أكثر، لا أتذكر، واستغرقني تنظيف المنزل وترتيب الحاجيات بقية اليوم، لأجلس متأملة ما حولي، متسائلة: رباه ما الذي أتى بي إلى هنا؟ أحقا أنا هنا أم أنه مجرد كابوس وسأستيقظ منه قريبا؟

"وتبقى أحلامنا قيد الانتظار"

أحلام مستغانمي

30 من أيلول (سبتمبر)2020

مرت قرابة شهر عن الدخول المدرسي، خلال هذه المدة ظهرت بعض الحالات المتفرقة المؤكدة بعدة مدارس هنا وهناك، حتى أن أمال كانت تشك في كونها مخالطة لإحدى الأستاذات المصابات بالمدرسة التي انتقلت للعمل بها، لكن لحسن الحظ لم تصب بأذى، وكذلك نحن خلال الأسبوع الأول، وبعد الاجتماع الأول للأساتذة شكت إحدى الأستاذات الملتحقات بأنها مصابة بفيروس كورونا، وكان لزاما أن نأخذ كل الاحتياطات اللازمة وننتظر النتيجة، ولحسن حظنا اتضح أنها غير مصابة.

أنهينا حصص اليوم عند الواحدة والربع زوالا، ودخلت إلى غرفتي مباشرة لأرتاح قليلا قبل أن أبدأ في أشغال البيت من طبخ وكنس، وما إن حل المساء حتى التحقت بنا زينب لنجتمع عند ربيعة بسكنها، أمضينا نصف الليلة ونحن نتبادل أطراف الحديث في محاولة لتكسير حالة الملل والرتابة التي تنبعث من المحيط. وها هي الثانية عشر ليلا تدق، لتعود كل منا إلى غرفتها على أمل أن تأخذ قسطا من النوم. دخلت غرفتي، عدلت فراشي، وعانقت وسادتي وما هي إلى دقائق حتى كنت في سابع نومة.

الساعة تشير إلى الثانية وأربعين دقيقة صباحا، الهاتف يرن ويرن، أخذته متثاقلة لأرى من تراه يتصل في هذا الوقت المتأخر الباكر، مهلا، إنها ربيعة ! كيف ذلك؟

- ألو، نعم، ماذا هناك؟

انقطع الاتصال، اتصلت بها لكن لا مجيب. فجأة سمعت طرقا بالباب، فتحته لأجد ربيعة أمامي، طلبت منها الدخول وأنا أنظر إليها محاولة التقاط بعض الإجابات، تبدو متعبة كمن تعرض لصدمة ما.

- ماذا هناك؟ ما الأمر؟ سألت
- هلا اتصلت ب عبد الرحمان؟ أجابت
- حسنا، لكن ماذا هناك؟ ما الذي يجري؟ سألت مجددا
- أخي الكبير توفي. أجابت ربيعة بنبرة حزن

نظرت إليها بدهشة، وعدت أبحث عن رقم عبد الرحمان لأتصل به بينما طلبت من ربيعة الجلوس. اكتشفت من اتصال واحد أن عبد الرحمان قد باع سيارته، هذا الذي جعلني أتصل ب جمال وهو (خطاف) آخر نتعامل معه، لكنه بدوره مررني إلى صديق له كان في طريقه إلى تازة. حددت معه موعدا عند الثالثة والنصف صباحا، ثم عدت لأسأل ربيعة مجددا عما حدث.

- لقد كان المسكين رجلا شهما حقا وطيبا، أحس بعياء بسيط فاتخذ متكأ له وفي دقائق فليلة كان قد أسلم الروح إلى بارئها حوالي منتصف الليل.

أنهت ربيعة حديثها، ثم عادت إلى سكنها لتجمع بعض الحاجيات، وقفت أنظر إليها عند الباب، لقد كانت مشغولة البال لا تعرف ما الذي ستفعله، فجأة انهارت أمامي بكاء.

- أعرف صديقتي أن الأمر صعب، لكن أرجوك عليك أن تصمدي خاصة وأنك مجبرة على الذهاب الآن في هذا الوقت، وهناك طريق طويل في انتظارك، إضافة إلى أن والدتك الآن ستكون بحاجة إليك قوية.

أنهيت كلامي وعادت ربيعة لتجمع حاجياتها، وما هي إلا دقائق حتى ناداني حارس المدرسة عبد السلام ليخبرني بأن هناك خطاف ينتظر الأستاذة بالباب، متسائلا عن سبب ذهابها في هذا الوقت المتأخر، أعلمته بما حدث وعدت أساعد ربيعة.

الموت لا يعني لنا شيئا نكون فلا يكون

الموت لا يعني لنا شيئا يكون فلا نكون

5 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

الساعة تشير إلى الخامسة صباحا، علي أن أستيقظ لكن لا قدرة لي على ذلك، نصف ساعة أخرى وها أنا أمام الأمر الواقع، يجب أن أستيقظ، أخذت فنجان قهوة بعد أن ارتديت ملابسي، أحضر والدي السيارة، قبلت حبيبتي الصغيرة هداية، وما هي إلا دقائق حتى كنت في طريقي إلى منزل ربيعة، نعم، هذه المرة قررت أن نذهب بسيارتي إلى العمل، ربع ساعة فقط وكنا في طريقنا إلى أهل مولة، رغم طول المسافة وتعب الاستيقاظ باكرا إلا أنني كنت مرتاحة جدا، توقفنا قليلا ب أحد امسيلة ثم أتممنا طريقنا. مرت ساعتان، وها نحن نقف أمام باب المدرسة، اتصلت ربيعة بالحارس الذي جاء من فوره ليفتح لنا الباب، أخرجنا كل حاجياتنا التي أحضرناها معنا، وتوجهنا فورا إلى الأقسام لمباشرة العمل.

تحدثنا في الكثير من الأمور، وحكت لنا ربيعة عن الأحداث التي وقعت منذ ذهابها لحضور عزاء أخيها، باحت بكل ما تملكتها من مشاعر حزن وأسى، أثرت بي كثيرا، وذكرتني بوفاة خالتي وكل تلك الأحاسيس المتضاربة التي عشتها وما أزال. صعب جدا أن تفقد أشخاصا تحبهم ويحبونك، وللأسف هم فقط يرحلون. كل الأفكار مرت بنا وكل الاحتمالات لما ستتركه هذه المأساة من أثر علينا، لكن أبدا لم يخطر ببالنا أن المأساة لم تنته بعد، إنها البداية فقط ونحن لا ندري، نستمر في التخطيط لحياتنا والقدر اللعين يستمر في مراقبتنا ويسقط على قفاه من الضحك.

اتصلت ربيعة بوالدتها في صباح اليوم التالي واكتشفت أنها مريضة، كانت متعبة جدا، أخبرتني وزينب أنها غير مرتاحة لذلك لكننا رجحنا فكرة أنها لاتزال متأثرة بتفاصيل المأساة الأخيرة التي عاشتها. بعدها بيوم ربيعة هي الأخرى أصيبت بالزكام، كانت تعاني من ألم بالرأس والتعب الشديد طوال اليوم، قدمت لها زينب بعض الأدوية والفيتامينات من أجل مقاومة الزكام في بدايته، لكن ربيعة بقيت على حالها وعانت لليومين التاليين من حمى شديدة، ومن حسن حظها أننا كنا هناك للعناية بها ولو قليلا، نزورها في كل ليلة، نتبادل أطراف الحديث ونحضر وجبة عشاء خفيفة، وغالبا ما ننهي جمعنا عند منتصف الليل أو ما يزيد عنه بساعة. استمر الأمر عدة أيام والحالة على ما هي عليه، كلما تتصل ربيعة بوالدتها تجدها متبعة أو تعاني من حمى وهذا لا يبشر بخير.

ترى ما الذي حدث؟

15 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

مر اليوم بسرعة، تناولنا طعام الغداء مع زينب وقضينا معها العشية كلها، اتصلت ربيعة بوالدتها عدة مرات تطمئن عليها، يبدو أنها ماتزال متعبة، لدى قررت أن ترافق ابنتها إلى بيتها لتعتني بها، هممنا بالمغادرة لكن زينب أصرت أن نتناول طعام العشاء معا، ولم نجد أمام إصرارها هذا إلا الترحيب بالفكرة. التحقت زينب بالمطبخ لتحضر الوجبة ورافقتها في ذلك، تارة كنت أساعدها وتارة أخرى كانت تطردني حتى لا ألمس شيئا مزاحا طبعا. لنتفاجأ بربيعة تنادي علينا تخبرنا بأن أحد أفراد العائلة اكتشف أنه مصاب بفيروس كورونا، وهو شخص مقرب لها ولوالدتها، أي من المحتمل أن تكون والدتها هي الأخرى قد أصيبت وهذا سبب تعبها في الأسبوع الأخير. سمعنا الخبر والصدمة بادية علينا لكننا في ذات الوقت حاولنا التماسك أكثر لنهدئ ربيعة، فأمها لم تظهر عليها الأعراض التي قد تجعلنا نشك في الموضوع، لا حرارة مرتفعة، لا سعال، لا مشاكل بالحنجرة، هي تحس ببعض التعب فقط وهذا لا يعني شيئا. باءت محاولتنا بالفشل، وكنا نعلم مسبقا أنها ستكون كذلك أمام الخوف والشك الذي كان يتملك ربيعة، لكننا استمرينا في محاولة الاقناع تلك، ثم غيرنا الموضوع لنتناسى الأمر شيئا ما، وها نحن نجلس نحن الثلاثة إلى المائدة لنتناول عشاءنا.

الهاتف يرن، أخت ربيعة تتصل، يبدو أن والدتها قد أصيبت بالغثيان نظرا لنقص نسبة السكري في الدم، طلبت منها زينب أن يقدموا لها القليل من السكر المذاب في الماء حتى تستعيد وعيها وطاقتها، دقائق فقط وجاء الاتصال الثاني تخبرها أختها أن والدتها قد ارتفعت حرارتها، نصحناها بأن تقدم لها حبة من (دوليبران) حتى يخفض حرارتها. ظل الأمر على حاله طوال الليل تارة تخبرنا أن حرارتها قد انخفضت وتارة أخرى قد ارتفعت، هذا الذي جعل ربيعة تزداد شكا في كونها قد تكون مصابة بفيروس كورونا، ولن أنكر أنني وزينب كذلك كانت لدينا نفس الشكوك لكن احتفظنا بها لأنفسنا محاولين تشجيع ربيعة أكثر. راقبت ساعتي كان الوقت قد تأخر فنصحت بأن نخلد للنوم قليلا على أن نتواصل في حالة توصلنا بأي مستجد، دخلت غرفتي وسقطت على السرير.

- ما هذا يا إلهي؟ طرق بالباب؟ كم الساعة؟

ألقيت نظرة خاطفة على هاتفي، إنها الخامسة صباحا، فتحت الباب فورا، ربيعة تقف أمامي يظهر عليها العياء.

- ما الأمر؟ ماذا هناك؟
- علي أن أذهب إلى تازة.
- لم؟ ما الذي حدث؟
- والدتي ارتفعت حرارتها وهي في حالة سيئة جدا.

- هل اتصلت بمن يقلك إلى هناك؟
- نعم، اتصلت ب عبد الرحمان سيصل قريبا.

اتصلت ب زينب طلبت منها الحضور، قامت ربيعة بجمع حاجياتها وكل ما قد تحتاج، وجلسنا جميعا ننتظر عبد الرحمان، استغلت زينب هذه الفترة لتنصح ربيعة بالثبات والتعامل مع الوضع كيف ما كان بعقلانية أكثر، وأن تحضر نفسها لكل الاحتمالات لأن الصدمة وعدم تقبل الواقع كما هو لن يفيد في شيء. كنا نعلم أن القول والنصح شيء سهل لكن التجربة صعبة جدا.

عاودت ربيعة الاتصال ب عبد الرحمان الذي أخبرها أنه على بعد خمس دقائق منا، حملت الحقيبة وخرجنا معها ننتظر بباب المؤسسة، خمس دقائق وها هو أمامنا ودعناها وطلبنا منها أن تظل على تواصل معنا، وأن تبلغنا بالمستجدات، ركبت السيارة، غادرت.

16 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

- هل اتصلت ربيعة؟ سألت زينب
- تأخرت فاتصلت بها أنا، هي في طريقها إلى المستشفى مع والدتها لإجراء الفحوصات الخاصة بفيروس كورونا. أجابت
- حسنا لننتظر النتيجة، نتمنى أن تكون سلبية وإن كان حدسي يقول غير ذلك. قلت
- لا أعلم، لننتظر. ردت زينب

غادرت فراشي لأحضر الفطور، اشتقت لرائحة القهوة، وضعت الإبريق على نار خفيفة، وبدأت أقلب القهوة بملعقة صغيرة شيئا فشيئا.

القهوة خبرة الوقت في الانتظار...

على منحدر ونصف تنزلق...

من فرط السواد والاحتلال...

لا أرى في الزاوية اللولبية...

غير قلمي العاري من كل اللغات...

ينام مجهول الحبر على طرف الحذاء...

وفي الجهة المقابلة للكلام...

والصراخ...

يتعثر الصمت الغجري...

وتقع قدمي في حب التراب...

أأكون فعلا في اللامكان...

أأكون وحدي وقعت في الخطيئة...

و وقّعت على الصليب...

صفقة الولادة من جديد...

هنا حصريا على شرف الختام...

تترجم الأشياء لفعل ماض مضى...

وأنا أسير إلى البداية الأبدية...

في فوضى الكتابة والحراسة...

أنتعل فصل الجريمة...

في انتظار احتساء النبيذ...

وآخذ حماما دافئا من الذكريات..

في:2015/12/09

الهاتف يرن، زينب تتصل.

- ألو، نعم. أجبت
- النتائج إيجابية. قالت زينب مباشرة
- يا إلهي، ما هذا؟ ماذا عن ربيعة؟ سألت
- نتائجهما معا إيجابية. ردت زينب
- وماذا عن حالتهما؟ سألت
- بالنسبة لربيعة تجاوزت الفيروس لكن والدتها تعاني من مضاعفات نظرا لحالتها الصحية وقد نقلوها لمستشفى ابن باجة للعلاج بجناح كوفيد 19. قالت زينب موضحة

رباه ما هذا؟ كيف حدث هذا؟ نعم، فيروس كورونا الذي كنت أتابع أخبار انتشاره وأعداد المصابين به طوال مدة، ها هو الآن بيننا، هذا الفيروس الذي نسيناه أو تناسينا وجوده في الجوار يوجه لنا ضربة موجعة من حيث لا ندري.

ترى هل سنصير نحن كذلك عددا ينضاف إلى الأعداد السابقة؟

هل سنصير نحن كذلك رقما آخر في اللائحة؟

17 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

استيقظت صباحا والتحقت بالقسم بالرغم من إحساسي بالتعب الشديد ورغبتي في البقاء بالبيت.. لكن العمل عمل والواجب واجب. انتهت الحصص الصباحية والتحقت زينب بالقسم من أجل مباشرة الحصص المسائية، كانت هي الأخرى متعبة بشدة، وأخبرتني أنها عانت طوال الليل من الحمى.

- مهلا، أنا كذلك عانيت من الحمى قبل يومين فقط. قلت
- وهل أصبت بإسهال كذلك؟ سألت زينب
- حسنا، نعم عانيت منه من قبل. أجبت
- أنا كذلك، بالإضافة إلى أنني أحس أن حنجرتي جافة جدا وكأنها أصيبت بجروح ما. أضافت
- مهلا، أليست هي نفس الأعراض التي...
- نعم، هي تماما، عانت منها ربيعة خلال هذا الأسبوع قبل ذهابها. ردت مقاطعة
- أيعني هذا أننا أصبنا نحن كذلك بالعدوى؟
- احتمال.

لا أعرف من أين أبدأ الحديث أم أن الحديث وحده سيبتدي، فرق شاسع بين أن تنتقل من عد الحالات إلى أن تكون أنت المعدود، اتفقت مع زينب أن ننتظر للغد ونراقب الوضع هل سيظل على حاله أم سيتفاقم أكثر، كما بدأنا نفكر في طريقة مناسبة لإجراء الفحوصات اللازمة.

السوق يلزم الصمت في رحلة العودة..

تائهون نحن في وقوفنا...

تائهون نحن في قعودنا...

تائهون...

كم لبثتـــم..؟

عقد..؟

ما من عقد في الحساب..

والعدد رمز يحملنا متى شاء...

ومتى يشاء...

لا تبوحوا برمز العتاب...

قولوا لبثنا كما شئنا...

وكما شاء الحكم في الغياب...

ثلة من الأولين يحملون الكتاب...

وثلة لازالت تبحث عن جريدة خلف الضباب...

كم لبثتـــم..؟

قولوا لبثنا بقدر الحروف التي كتبنا..

2015

18 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

اليوم يوم عطلة لكنني على موعد مع بعض الأعمال المنزلية من جلي وغسيل وطبخ..، أشغال لا تنتهي، اتصلت ب زينب أسألها عن حالها، كانت قد سهرت الليلة ومعاناتها مع الحمى، أما أنا فلاحظت ألما بالحنجرة صباح اليوم، اتصلت ب ربيعة كذلك لأسألها عن والدتها، صارت أفضل من قبل وأكثر تفاعلا. وضعت الهاتف بعيدا ليشحن وأتممت أعمالي المنزلية حتى فاجأني اتصال السيد مدير المؤسسة عبد الرحيم.

- آلو، أهلا أستاذ، كيف الحال؟
- بخير الحمد لله، وأنت؟
- الحمد لله. نعم أستاذ.
- كيف حال صحتك، أخبروني أنك متعبة شيئا ما؟
- أجل أستاذ أحس ببعض التعب هذه الأيام وارتفاع في درجة الحرارة من وقت لآخر.
- وماذا عن الأستاذة زينب؟
- نفس الشيء، حتى أنها عانت أكثر مني من هذه الأعراض.
- حسنا، يبدو أنه قد حان الوقت لإجراء اختبار الكشف عن فيروس كورونا ما دامت قد ظهرت عليكما أعراضه.
- علم أستاذ، غدا سنعود إلى مدينة تازة لإجرائه.
- اتصلا بي عند وصولكما حتى أحضر لكما مطبوع الاستشارة الطبية لملئه من طرف الطبيب.
- اتفقنا أستاذ.

انتهى حواري مع السيد مدير المؤسسة، واتصلت فورا ب زينب أخبرها بالمستجدات، اتفقنا بدورنا على أن ننطلق على الساعة السادسة صباحا في رحلتنا إلى تازة. حاولنا ليلا أن نسجل اختياراتنا للمناطق التي نرغب في الانتقال إليها بموقع الحركة الوطنية لانتقال الأساتذة، هذه الحركة التي يعلن عنها مرة كل عام من أجل فتح باب الانتقال من مؤسسة إلى أخرى في وجه جميع الأساتذة، مع اختلاف يبدو بسيطا لكنه جوهري بين السماح للأساتذة التابعين لوزارة التربية والتكوين بالانتقال وطنيا بينما لا يسمح للأساتذة موظفي الأكاديميات الجهوية إلا بالانتقال على الصعيد الجهوي، عموما باءت المحاولة بالفشل نظرا لضعف الصبيب، وبما أننا كنا متعبتين للغاية قررنا أن نترك الأمر للغد بعد انتهائنا من الاستشارة الطبية الكوفيدية.

19 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

السادسة صباحا، آدان الفجر ينتشر صوته في كل زاوية من زوايا هذه القرية الصغيرة، ونحن نزيل غطاء السيارة، أدرت المفتاح عشر دقائق فقط وكنا في طريقنا إلى تازة، نسير بخطى ثابتة والظلام الحالك لا يكسره سوى ضوء السيارة المصوب على الطريق كسهم يخترق خجلها ويفضح حالتها المهترئة، صمت قاتل يبعث فيك رعشة الموت الهادئ، ونحن نتحايل عليه بخلق جو آسر تحت إشراف صوت الرائعة "Celine Dion" بأغانيها المعروفة: ***"Parler à mon père "*** ،***"Si je n'ai rien de toi "*** ،***"Je ne suis pas celle "*** ،***"Femme comme chacune "*** ،***"Immensité "...***واللائحة طويلة، نضحك تارة سخرية مما نفعل وتارة أخرى نتبادل حديثا جديا.

التاسعة إلا ربع، دخلنا المدينة الضائعة واتصلت زينب بالسيد المدير تعلمه بالأمر.

- ألو أستاذ، كيف الحال؟
- بخير، وأنتم؟
- الحمد لله، لقد وصلنا للتو، أين سنلتحق بك أستاذ؟
- ستجدونني بالقرب من مبنى المديرية الإقليمية.
- حسنا أستاذ، إلى اللقاء.

عدنا إلى الطريق مرة أخرى، عشر دقائق ها نحن بالمكان المتفق عليه، أخذنا أوراق الاستشارة الطبية والتحقنا فورا بالمستوصف الكائن بحي الحجرة لإجراء التحاليل اللازمة. كان الأمر يسيرا بالنسبة ل زينب كونها تقطن بحي المسعودية التابع لهذا المستوصف، بينما تطلب الأمر بالنسبة لي بضع ساعات حتى أتمكن من إجراء الاختبار والحصول على النتائج، التي اتضح في النهاية أنها سلبية، نعم، نحن لا نحمل الفيروس، لكن الاختبار يبقى اختبارا نسبيا ولا تتعدى دقته 50 بالمئة. على العموم لا يهم، صار بإمكاننا العودة إلى العمل الآن. تواصلنا مع السيد المدير مرة أخرى وأطلعناه على النتائج، لأتجه فورا إلى البيت كي أنام وأرتاح قليلا.

رن الهاتف فجأة ليوقظني من نومي، فتحت عيني بصعوبة ومقاومة شديدة، رقم على الشاشة لا أعرفه لدى لن أجيب، قمت بتشغيل الأنترنيت وزرت صفحتي على واتساب، أسماء أرسلت رسالة صوتية تسألني فيها عن الأحوال.

- مرحبا، هل كل شيء بخير؟ كيف صار الاختبار؟
- جيد جدا، النتيجة سلبية.
- الحمد لله على سلامتك، كنت أفكر لو أنك مررت بي لأطمئن عليك ونمضي بعض الوقت معا.

- فكرت في الموضوع كذلك لكنني كنت متعبة جدا، نمت فور وصولي والآن فقط استيقظت.
- حسنا لا بأس، المهم أنك بخير.
- لننتظر العطلة، ستتيح لنا فرصة للاستمتاع معا.
- أكيد.

انهينا الحديث لأترك الهاتف والفراش خلفي، علي أن أزور أختي لأطمئن عليها وعلى الصغيرة هداية، غادرت البيت مباشرة، قضيت الليلة نصفها ألاعب هداية حبيبتي الصغيرة، تناولت طعام العشاء معها إلى جانب أختي سهير وزوجها إبراهيم وكذلك ابنة خالي سهيلة، مر الوقت بسرعة وها أنا أعود إلى غرفتي لأرتاح قليلا محضرة نفسي لرحلتي الصباحية عودة للعمل.

السابعة صباحا، زينب هنا، أدرت مفتاح السيارة، وانطلقنا عائدين من حيث جئنا.

السفر ليس نقط البدائية ولا نقطة الوصول

السفر هو كل ما بينهما !

20 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

منذ يومين ونحن نحاول دخول موقع الحركة الانتقالية لوزارة التربية الوطنية دون جدوى، في كل مرة يعلن عن وجود خطأ في النظام أو أن الموقع خارج الخدمة، هذا الوضع جعل أعصابنا كالبركان لكننا حاولنا التحكم أكثر. سجلت المؤسسات التي أرغب في الانتقال إليها في محاولة مني لتقليص المسافة إلى مدينة تازة، وكذلك فعلت زينب سجلت خمس مؤسسات داخل إقليم تازة فيما اختارت خمس مؤسسات بإقليم صفرو. مرت ساعات وساعات، وها هي الحادية عشر ليلا تضق، ونحن مازلنا في القسم نحاول الولوج للموقع دون فائدة، تعبنا كثيرا وغالبنا النعاس، فقررت وزينب أن ننام قليلا لنرتاح على أن نستيقظ عند الثالثة صباحا لنقوم بمحاولة أخرى آملين النجاح.

سقطت على السرير معانقة وسادتي ورحت أهيم في نوم عميق، لم يدم ذلك طويلا، للمنبه رأي آخر وصوت يحدث فجوة فزع بين النوم و اللانوم، يا إلهي أهذه فلسفة أم حمق؟ ! فتحت عيني بيدي وتذكرت ما كان يفعله Tom قط الرسوم المتحركة المعروف للكبار والصغار "Tom & Jerry"، دائما ما كان يضع عودا خشبيا صغيرا للإبقاء على عينيه مفتوحتين، أينفع أن أفعل نفس الشيء؟ ! رباه، ما الذي يحدث لي؟ علي أن أستيقظ.

فتحت الحاسوب ودونت الموقع على صفحة محرك البحث Google، سجلت بريدي الالكتروني وكلمة المرور، وها أنا بالداخل والموقع يسمح لي بالتسجيل، اتصلت بزينب أخبرها لتلتحق بي، وبدأت في تسجيل المؤسسات واحدة تلو الأخرى:

- كلدمان المركز
- سيدي بوبكر المركز
- سيدي عبد الله المركز
- الكعدة الحمراء المركز
- جماعة أولاد ازباير
- ظهر اللوز المركز
- جبلة المركز
- بوحلو المركز
- النفق المركز
- الإمام البخاري

عشر مؤسسات قد تستقبلني إحداها وقد لا يفلح الأمر، وقد أنجح في ذلك بنسبة خمسين بالمئة فأكون فائضة لأبدأ معاناة جديدة قبل الاستقرار في مكان عمل رئيسي، معاناة يعيها جيدا نساء ورجال التعليم بالسلك الابتدائي. سجلت زينب هي الأخرى اختياراتها بعد أن استبدلت الاختيارات التي كانت بإقليم تازة بأخرى بإقليم صفرو، وقد جاء هذا التغيير ليس عن رغبة طبعا بل عن إكراه محض، فالموقع رفض أن يوفر لها إقليم تازة كاختيار لسبب غير معروف. حزنت للأمر، ليس من السهل أن تترك مدينة يتواجد بها كل من تحب حتى وإن كانت هذه المدينة هي المدينة الضائعة تازة.

22 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

اليوم كذلك استيقظت باكرا لأسجل اختيارات ربيعة بموقع الحركة الانتقالية، قمت بذلك حوالي الساعة الثانية صباحا، واستيقظت مجددا حوالي الثامنة صباحا لأسلم الوثائق المطلوبة في هذا الشأن للسيد المدير قبل مغادرته المؤسسة، وما إن انتهيت حتى عدت إلى فراشي كطفل يعود لأحضان أمه فارا من برد قارس. نمت جيدا واستيقظت في غاية النشاط، لأتناول طعام الفطور على صوت فيروز وجوليا بطرس، لم أستيقظ بهذا النشاط منذ مدة وهذا كله عائد للجو الجميل الذي ينعشني، إنها الأمطار يا سادة، أجل، الجو الماطر يحييني ويبعث في نشاطا غريبا، مطر خفيف أرغب في الارتماء تحته ليبللني كلما واتتني فرصة لذلك، أنتشي بتفاصيله الصغيرة وأكتب قصيدة أو أشرب فنجان قهوة، يا للسعادة في قمة البساطة.

زرت صفحتي على واتساب، أسماء غيرت صورتها الشخصية ووضعت صورة لنا معا ونحن نتناول فطورنا بإحدى المقاهي، لطالما عبرت أسماء عن اشتياقها بطريقتها الخاصة وهذه واحدة من الطرق، أنا كذلك اشتقت لها كثيرا، أفكر في برمجة لقضاء مزيد من الوقت معها ببيتها الذي اكترته مؤخرا لتقطنه وحدها بعد رحيل عائلتها للاستقرار بمدينة فاس، ستكون أياما جميلة، أنا وصديقتي العزيزة وحمقنا الذي لا ينتهي.

أغلقت الهاتف، وضعته جانبا لأرتدي ملابسي وألتحق بالقسم. مرت الحصص المسائية كما هو الحال دائما إلا أنني كنت أكثر نشاطا، وما إن انتهيت نادتني زينب حتى ألتحق بها لتناول وجبة الغداء، نعم، الوجبة التي يتناولها الجميع زوالا نحن نتناولها مساء، هكذا أصبح برنامجنا الغذائي مند التحقنا بالعمل. انتهى اليوم وها أنا أجالس زينب الفتاة الطيوبة في سكنها نتبادل أطراف الحديث حول تجاربي في التنويم المغناطيسي سابقا، وظروف بعض القصائد، ونخوض تحديات أبيات الغزل والمدح.

أزينب مهلا هذا الدلال...
والقلب مكتوم والبوح محال...
تراك العين، شوقا تنال...
والغمد مكسور والدمع يسال...

لقياك، لقياك زينب انهيار...
وعيناك نظرة مهزوم انتحار...
فكيف للفؤاد الصغير اعتذار...
كيف أمام الشفتين المعتقتين انتصار...

أثمل.. أثمل منك ابتسامة...
والروح تشفى، إذ تبتل منك رشفة..
حروف تتمايل يمنة ويسرة...
تعاني في التكوين انتكاسة...
أي الكلمات قد تكفيك وصفا...
وأي الأقلام تسطر فيك حكاية...

في غيابك نحزن حزن اليمام...
وقد نبكي حرقة بكاء الحمام...
في بلاد عرب عطشى للسلام...
حمقى ما عاد لهم من وئام...

أزينب اسما يبعثرنا سكارى...
يرمي تفاصيلنا الصغيرة انتظارا...
نبيذ صداقة تزهر افتخارا...
وحبا يتلألأ داخلنا اعتمارا...

23 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

الجو بارد وممطر، أرفع الغطاء عني بتكاسل، أستمتع بالغيوم الرمادية هناك في السماء، أطلقت العنان لصوت "كارول سماحة" ليتبعثر بتناسق في الأرجاء، أحب هذه التفاصيل الصغيرة في صباحاتي الماطرة، أستمع بحب للكلمات وأحضر قهوتي السوداء، كلما حل تشرين عدت إلى قهوتي لتعود إلي، أحركها شيئا فشيئا وهي تغلي أمامي، وضعت فنجانين ومعهما رسم وردة صغيرة، إلى اليمين الإبريق الساخن وبعض السكر، دقائق بالمطبخ وها أنا أرتشف مشروبي حلوا مستمتعة بالجو العام.

- ألو زينب، هل تنضمين إلي للإفطار؟
- إنني بالبيت الآن، ماذا حضرت؟
- القهوة حتى الآن، إذا انضممت سأحضر المائدة كاملة.
- لا داعي، أريد فنجان قهوة فقط.
- حسنا، التحقي إذن.

انضمت زينب إلي لتحتسي القهوة الخفيفة معي، لم تكن قد نامت بشكل جيد، اتصل بها شخص ما كان يريد التحدث إليها بخصوص مرضه آملا في نصيحة، حسنا هذا ما كنا نظن حتى أجابته، لم أود أن تخوض في الأمر أكثر وإعطائه أكثر من قيمته وخسارة أكبر لأعصابها، حاولت أن أخرجها من ذلك بطريقتي.

انتهى وقت الاستراحة الصباحية وعادت زينب إلى القسم لتتم الحصص المتبقية، وعدت لأسمع الموسيقى وأرتشف ما تبقى في فنجاني من سواد، غدا سنعود إلى الطريق في رحلة إلى المدينة الضائعة، غدا ستبدأ عطلتنا الأولى هذا الموسم، العطلة البينية الأولى التي ستدوم أسبوعا كاملا. لا أعلم ما الذي تخفيه لي الأيام القادمة لهذا قررت أن أستمتع بأقصى ما يمكنني، وأن تكون رحلتي هذه رحلة تستحق الذكر.

Le tous passe et repasse sauf les souvenir qui reste à leur place

24 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

- مبارك لك، أتمنى لك كل خير.

هكذا عبرت زينب عن الاستنتاج الأخير الذي خلصت إليه من اللا إجابة التي قدمتها عن سؤال أربكني أكثر مما كنت أظن. هناك أسئلة تطرح طلبا للحصول على إجابة، وأسئلة أخرى تطرح بشكل استنكاري، الهدف منه اكتشاف ما نحن عليه والتأمل في خطواتنا. تعودت منذ زمن أن أقدم إجابتي دون تردد واثقة من قراراتي، فعادة ما أضع أمامي كل الاحتمالات وأحسبها جيدا محضرة نفسي لإيجاد حل مهما كانت الظروف، وغالبا ما تكون الحلول منطقية جدا مبنية على تحليل معقلن بعيدا عن العواطف المتناقضة.

- ماذا حدث هذه المرة؟ ما المختلف في الأمر؟ تساءلت مع نفسي

ببساطة لا أملك إجابة واضحة، وربما الإجابة واضحة حقا لكنني أهرب منها إليها في حلقة مفرغة، أحاول أن أتجاوز السؤال الذي أربكني حقا، إرباك انضاف إلى التعب الذي كنت أحس به نتيجة طول الرحلة وقلة النوم، وها هو التركيز يبعث لي سلامه في منعرج من منعرجات هذه الأفعى الملتوية.

- يا إلهي، ما هذا؟ هل أفقد السيطرة حقا؟ أحتاج بعض الراحة.

توقفنا بقرية قريبة "مكناسة" لنتناول وجبة الغداء/العشاء ولنستريح قليلا، أجلس، أحادث زينب في مواضيع هنا وهناك محاولة إخفاء انشغالي بالتفكير في سبب عدم وجود إجابة عن سؤالها ذاك. ساعدني انشغالها كذلك باتصالات والدها الذي انتابه القلق حول الحركة الانتقالية التي قدمنا طلبنا بها، فبعد أن قدمت زينب من أجل الانتقال إلى ضواحي مدينة صفرو مستعينة بشهادة سكناها التي تحمل عنوانها هناك، ها هو المدير يتصل ليخبرها أنها يجب أن تحضر شهادة سكنى تخص والديها لأنها تطلب الالتحاق بهما، مع العلم أن اليوم هو يوم سبت وعليها موافاته بها يوم الاثنين، كل هذه الأحداث قلبت توقعاتنا للحركة رأسا على عقب، واختلط الوضع على زينب مثلما اختلطت علي الأفكار أمام سؤالها المباغت.

أنهينا وجبتنا وعدنا إلى الطريق، نتنفس هذا الأكسجين، لم يعد منعشا كما كان من قبل، الفيروس اللعين قلب المدينة أعلاها أسفلها، مررنا بمنزل ربيعة لنسلمها بعض الحاجيات ثم إلى المديرية الإقليمية، لملاقاة السيد المدير، سلمناه هو الآخر بعض الوثائق تبادلنا أطراف حديث عابر لننطلق في طريقنا إلى منزل زينب.

أنا الآن وحدي، قيادتي للسيارة أثبت من قيادتي لتفكيري، أسير شاردة الذهن أفكر.

26 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

مر يوم واحد على قدومي إلى تازة، أمضيته بالبيت مع والدي وابنة أختي الصغيرة هداية الجميلة، كعادتها تجلس وتنتظر مني أن أقدم لها الطعام، أنا التي عودتها على ذلك، أصحبها معي إلى المطبخ لتحضير أكلتها الخاصة، وأنا أحكي لها عما سنقوم به خطوة خطوة وكأنني أقدم برنامج طبخ، أحبت ذلك وصارت كلما أحست بالجوع في حضوري تأتي إلي لآخذها في رحلة بمطبخنا الصغير قبل أن نمر إلى تناول وجبتنا الشهية.

استيقظت عند الحادية عشر وأنا أستمع ل "كارول سماحة"، تناولت فطوري مع والدتي ونحن نتبادل أطراف الحديث.

- أفكر مساء في زيارة أسماء وقضاء بعض الوقت معها وربما قد أبيت الليلة عندها.
- لابأس بذلك استمتعي مع صديقتك. قالت أمي
- أجل وقد أمر لأخذ نظاراتي الجديدة. أجبت مفكرة
- جيد، عليك فعل ذلك حقا بعد أن انكسرت نظاراتك هذه. أضافت أمي
- حسنا، سأعمل على الأمر. أنهيت الحوار.

الجو غائم، قد تمطر في أي لحظة لأستمتع بهذه القطرات الصغيرة تداعب وجهي، حملت معطفي ومحفظتي ثم غادرت البيت حوالي الواحدة زوالا، نصف ساعة وكنت أمام عيادة الدكتور "أ-ه" التي تشتغل بها أسماء كمساعدة لزوجته الدكتورة "م-إ- د"، انتظرت لبضع دقائق قبل أن تخرج أسماء، لننطلق من فورنا إلى حي المسعودية حيث يوجد المحل الذي سآخذ منه نظاراتي الطبية. انتظرنا نصف ساعة تقريبا بالقرب من المحل قبل أن يلتحق صاحبه السيد كريم ومساعدته، وقفت وأسماء أمام المرآة أجرب نظاراتي الجديدة، فجأة رن هاتفي.

- ألو، من معي؟ سألت
- ألو، معك حسناء، أين أنت الآن؟ سألت
- خارج البيت لما؟ ما الأمر؟ سألت مرة أخرى
- خالك قد تعثر بسبب الأمطار وسقط أرضا، وقد أصيبت يده وهو الآن بالمستشفى الإقليمي يحتاج بطاقة "رميد" من أجل إجراء الفحوصات اللازمة. أجابت مفسرة
- حسنا سأحضر في الحال.

خرجت من فوري وأسماء معي، ركبنا أول سيارة أجرة صادفناها في طريقنا ومباشرة إلى المنزل. كانت حسناء زوجة خالي عبد القادر تنتظرني بالبيت، وحال وصولي أخذت منها محفظة خالي التي تحتوي وثائقه

كلها، لأعود أدراجي في اتجاه المستشفى، استوقفتني والدتي تخبرني أنه ربما حسناء قد تذهب معنا هي الأخرى مادامت لم ترافق خالي عند التحاقه بالمستشفى وحده، رحبت بالفكرة وأكملت طريقي. أدرت مفتاح السيارة التي كنت قد استغنيت عنها في تحركاتي لليوم أملا في الاستمتاع بالسير تحت الأمطار فإذا بي أجد نفسي تحت الأنقاض، 10 دقائق وها نحن أمام المستشفى.

- حسنا سأترككما للذهاب عند خالك بينما سأزور أختي. تحدثت حسناء
- ألن تأتي معنا؟ سألت
- سأزور أختي أولا وسألتحق بكما فيما بعد. أجابت حسناء

تركتها واتجهت إلى باب المستشفى حيث استوقفني الحارس يسأل عن سبب زيارتي، ولجت جناح الأشعة وهناك وجدت خالي المسكين يقتعد كرسيا منتظرا الطبيب، وهو في حالة يرثى لها، يجلس وحده يحمل يده اليسرى التي كسرت عظامها بسبب قوة وثقل جسمه عند سقوطه.

- أ أنت بخير؟ ماذا قال الطبيب؟ سألت
- الحمد لله، يقول أنه علي إجراء عملية جراحية لتثبيت العظام المنكسرة بقطع من حديد. أجاب بصوت حزين باك.
- لا عليك، سنجد حلا أكيد. تماسك أرجوك. تدخلت محاولة مواساته ثم سألت: والآن ماذا تنتظر؟
- أنتظر إحسان الحق ابن عم حسناء هو يعرف بعض الأصدقاء لكونه طبيبا.

جاء إحسان الحق أخيرا، سألته عن الحالة بالضبط فأكد لي ضرورة العملية الجراحية لتثبيت يده ومساعدة العظام على الالتحام، واقترح أن تجرى الجراحة بمستشفى خاص على يد الدكتور "واضح". التفت إلى خالي أراه مكتئبا خائفا من الجراحة وسألته عن انفراد إن كان بإمكانه تحمل نفقات الجراحة التي تبلغ حوالي خمسة آلاف درهم، فكر قليلا وأجاب بالإيجاب. طمأنته أنني مستعدة لمد يد المساعدة في أي شيء قد يحتاجه، واتصلت بالأستاذة زينب.

- أهلا، كيف الحال؟ سألت
- أهلا بك، بخير، وأنت؟
- الحمد لله، زينب أريد أن أعرف إن كنت تعرفين شخصا على تواصل مع الدكتور واضح.
- كلا، كان لي رقمه لكنني أتلفته، لماذا؟ سألت زينب
- خالي بحاجة لإجراء عملية جراحية، تعرض لحادث وكسرت يده. أجبت
- يا إلهي، أتمنى له الشفاء العاجل، وأنا على استعداد تام لأية مساعدة مادية قد تحتاجينها لا تترددي.
- شكرا لك، أعلم أنه يمكنني الاعتماد عليك.

أغلقت الهاتف وعدت لأسأل خالي إن كان يرغب في أن آخذ له موعدا عند الطبيب، وها هو الهاتف يرن مرة أخرى، إنها حسناء.

- ألو، نعم؟ أجبت
- هل انتهيتم؟ أنا أنتظر بالخارج مع والدتي. سألت
- لم ننته بعد، ننتظر أخذ موعد مع الدكتور واضح. أجبت
- حسنا سأنتظركم هنا بالخارج. ردت حسناء

اتفقنا أخيرا على زيارة الطبيب عند التاسعة من صباح اليوم التالي، خرجت وخالي وأسماء، أحضرت السيارة ثم اتصلت ب حسناء، هي ببيت أختها بحي المسعودية القريب من المستشفى، التحقت بالمكان لإحضارها، كنت أنظر إلى خالي وهو يركب إلى جانبي حزينا، وأقرأ خوفا شديدا بعينيه، خالي الذي كنت أنعته بأخي الكبير طوال صباي ولم أقلع عن ذلك إلا بعد زواجه، خالي الذي كلما نظروا إلى صور حفل زفافه ضحكوا من نظرتي له، كل الصور أظهر فيها وأنا أتجه بنظري إليه هو فقط كمن يودع حبيبا غال على قلبه، خالي الذي أبعدته مسؤولياته عني وأخرجتني بشكل تدريجي من دائرته، ها هو يجلس إلى جانبي مكتئبا منكسر الفؤاد مكسر اليد، أما حسناء فكانت بالكرسي الخلفي إلى جانب أسماء تبكي قهرا لما بلغته أختها التي دخلت العناية المركزة ولم تستيقظ بعد.

ترى ما نفع البكاء في مثل هذه الحالات وهكذا ظروف؟

وصلنا أخيرا، وها نحن نحاول تجاوز تعب اليوم بالجلوس إلى المائدة لتناول بعض الطعام، مددت خالي بالدواء وغادرت المكان فورا بصحبة أسماء إلى بيتها، نحضر وجبة العشاء بمطبخها الصغير، تعودت على أن تقوم أسماء بهذه العملية لكن الأمر يختلف اليوم لأنني من أحضر الوجبة، الموسيقى تنبعث في الأرجاء كالعادة نتأرجح بين (سيلين ديون) و(كارول سماحة) تارة وتارة أخرى نشنف أسماعنا بصوت (جوليا بطرس).

أمضينا وقتا ممتعا تناسينا فيه كل الأحداث المشوشة والمزعجة.

27 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

أفتح عيني بصعوبة، أحاول الاستيقاظ لمباشرة يوم جديد مليء بالانشغالات، من قال أن العطلة ستكون أيام راحة واستمتاع؟ كيف فكرت في الأمر حتى؟ !

الصباح الباكر والجو البارد، الطريق خالية إلا من بعض الكلاب التي جعلت من الشارع مأوى لها، أظننا بعد غزو فيروس كورونا وارتفاع الحالات المصابة به ستغزونا الكلاب يوما، هذا طبعا إن بقينا على قيد الحياة ولم نكن من ضحايا المرض والحروب والاستغلال. قمت بتشغيل المذياع علني أجد فيه شيئا ينعشني، فلم أجد غير اللقاح موضوع الساعة، نعم، لقاح الفيروس الذي يستعدون لنشره ومد المواطنين به، ترى هل سينفع ذلك؟ أغلقت المذياع واتصلت بخالي أسأله إن كان مستعدا للذهاب إلى المستشفى، رافقته وأمي إلى عيادة الدكتور "واضح" حيث قام ببعض التحاليل الطبية استعدادا لإجراء الجراحة، تأخر الوقت وكان لزاما أن نترك العيادة على أن نعود مساء، وقت الفراغ هذا كان كافيا جدا ليغير خالي من رأيه في الموضوع، الوقت كل الوقت، في بعض الأحيان عندما يندمج مع الخوف يفضي بنا إلى التراجع عن قراراتنا بشكل قطعي، وخالي كذلك تراجع عن قراره ليتخذ آخر، قرار الذهاب لوضع الجبيرة. حاولت مرارا أن أغير من رأيه هذا لكن الشروط المحيطة والآراء الأخرى كان لها تأثير أكبر، أعدته إلى البيت وذهبت لأجالس حاسوبي وأرتاح قليلا كتابة.

- آلو، ماذا تفعلين؟ سألت أسماء على الهاتف
- لا شيء، كنت متعبة فبقيت بالبيت لأرتاح. أجبت
- ما رأيك في القيام بجولة؟ حسام هنا كذلك. قالت
- جولة إلى أين؟
- لا أعرف، نقرر عند اللقاء. أجابت
- حسنا، سأحضر.

بعد تعب اليوم وضغوطه تبدو لي الجولة مع أسماء وحسام أجمل ما قد يحدث، ارتديت ملابسي بسرعة وغادرت البيت للقائهما، أحضر حسام سيارته وفور وصولي انطلق بنا في جو من المرح، تابع القيادة حتى وصلنا "كلدمان" ليقوم بنصف دورة ويعود بنا، كانت الموسيقى المرحة تثير حماستنا وأسماء تأخذ الصور التذكارية. مر الوقت بسرعة البرق وعدنا إلى هنا حيث التشتت والتبعثر، وعدت إلى البيت أجالس حاسوبي من جديد لأكتب بضع كلمات، هي هاذي الكلمات.. !

28 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

- آلو، خالي هل أنت مستعد؟ سألت
- نعم، في طريقي إليك. أجاب
- جيد، بانتظارك.

أنظف السيارة استعدادا لرحلتنا القصيرة إلى قرية "أولاد زباير" لزيارة طبيبه البديل الجديد (الركبي) من أجل وضع "جبيرة" ليده، في الحقيقة كنت ولازلت من المعارضين للفكرة، فأنا أفضل الجراحة على الجبيرة في حالته هذه. على العموم ليست كل الأفكار تنال القبول.

أخيرا نحن بعين المكان، ركنت السيارة واتصل خالي بالرجل المعني، حسناء التي رافقتنا طول الطريق لم تستطع الدخول معنا، فهي لا تحتمل رؤية مثل هكذا مناظر مؤلمة، وها أنا أقف موقف المسؤولية المطلقة مجددا، علي مرافقته بدلا منها لوضع الجبيرة. استقبلنا الرجل بترحاب كبير ومدنا بالكثير من الصور الفوتوغرافية لأناس سبق وعالجهم حتى نطمئن، ولم أطمئن.. !

عشرون دقيقة من الكلام الفارغ قبل بداية العملية إن صح التعبير، طلب مني أن أمسك بيد خالي من المرفق بينما أخذ هو يدلكها برفق، ثم أدارها في الاتجاه المعاكس للكسر، كان خالي يتألم وهو يتكئ على دراعي، تطلب الأمر 20 دقيقة أخرى قبل أن يضع له الجبيرة التي حضرها قبلا، وطوال مساعدتي له كان ينظر إلي بشكل غريب، نظرة لها ما لها وعليها ما عليها لا تمت للبراءة بصلة، ويستغل كل فرصة ليحدثني، الوضع كله جعلني أتساءل على الفور: أيهما أهون الكورونا التي تحصد كل يوم الآلاف أم مثل هكذا أوباش؟

انتهينا وغادرت المكان فورا، عدت إلى السيارة وجلست منتظرة خالي لأعيده إلى البيت، لكن قبل ذلك قررت التوقف بمحطة "واد أمليل" لتناول وجبة الفطور/الغذاء، وجبة شواء تناولناها بسرعة حتى نعود إلى الطريق لأن الوقت قد تأخر وحسناء ترغب في زيارة أختها التي سينقلونها إلى المركب الاستشفائي الحسن الثاني بمدينة فاس.

16:00

أخيرا بالبيت أحاول النوم، النوم فقط.. !

30 من تشرين الأول (أكتوبر) 2020

هناك صباحات تجعلك تتمنى لو أنك لم تستيقظ قط لتكتشف ما اكتشفته فيها، هناك صباحات تتمنى لو أنها لم تكن، فكيف إذن ستستطيع أن تكتب عنها؟ الكلمات ليست كالكلمات هكذا غنت "ماجدة الرومي" يوما، لكل منا كلمات يستحقها ولا يستحقها غيره، وهناك أخرى نؤمن أنها موجودة فقط لتقال لأشخاص بعينهم لا لغيرهم. هكذا كانت تقول كلما تحدثنا حول الأشياء المميزة فينا، والتي تخلى عنها الكثيرون غيرنا، فكيف إذن نتخلى عن إيماننا هذا وتصير الكلمات لدينا مبعثرة هنا وهناك، ندلي بها لأي كان؟ كيف يتغير الإنسان بين ليلة وضحاها ليصير غيره بضربة سوء حظ أو سوء اختيار؟ كيف يسمح الإنسان لنفسه بالتنازل عن الكثير مما كان يميزه عن غيره ليصير كغيره؟ من قال أن الصدفة لا تقلب الموازين؟ هناك مصادفات تنقلب صدمات تلقي بك في بحر من تفاصيل الحكاية والوقت المدجج بكل أسلحة الماضي. من هنا يبدأ التغيير لدى الانسان ومن هنا يبدأ سقوطه المدوي لدي.

انصرفت..

أقود نفسي أو تقودني لا أدري، ولا يهم، في النهاية علي أن أزور زينب ببيتها حتى يرافقني أباها للقيام ببعض الإصلاحات الطفيفة للسيارة، هذه أول مرة أزور بيت زينب، استقبلتني و والدتها استقبالا حارا، وأكدت علي بأن أتناول طعام الإفطار معهم قبل المغادرة. زينب صارت تعرفني جيدا فهي دقيقة الملاحظة، وبمجرد أن تسمع صوتي على الهاتف أو أن تراني تدرك أن هناك خطبا ما، وطبعا لديها طريقتها الخاصة في جعل من يرافقونها يتجاوزون حزنهم أو توترهم. حاولت معي ذلك وساعدها كوني كنت قد بدأت أركز أكثر على ما تحتاجه السيارة من إضافات.

مرت الساعات مرور الكرام، واخترت من باقة ورد عربون شكر لزينب والعائلة على كل ما قدموه لي من مساعدة، وأتى المساء ليسدل ستاره بغروب الشمس ونحن في طريقنا إلى "راس الماء" للتمسك بفنجان قهوة تحت جناح الطبيعة.

ونستمر على ألم...

08 من تشرين الثاني (نوفمبر) 2020

مر حوالي الأسبوع عن التحاقنا بمراكز العمل بعد العطلة، أسبوع شاع فيه خبر اتخاذ المغرب لقرار توزيع اللقاح على المواطنين، وتأكدت الإشاعة حقا في نشرة إخبارية أوضحت التراتبية التي سيوزع بها اللقاح، بدء بأطر الصحة والجيش وأطر التعليم ومنهم إلى عموم المواطنين والمواطنات، لقاح أجريت عليه العديد من التجارب السريرية للمرضى وتبين أنه مناسب جدا للبشرية بالرغم من أن اكتشافه وتكوينه الأول يعود إلى الصين، وهذا وحده يجعل بدنك يقشعر، لكن لا بأس ربما سيكون توزيعه نهاية الفايروس التي ننتظرها منذ عام تقريبا.

صار لدينا برنامج نسير عليه، نذهب للعمل صباحا أو مساء ونلتقي نحن الثلاث، أنا وربيعة وزينب ليلا لنتناول وجبتنا الأخيرة، ونتبادل أطراف الحديث وبعدها تعود كل منا إلى غرفتها لتنام، برنامج أفادني كثيرا، فتواجدي مع كل من ربيعة وزينب يقلل من وحدتي ويحسن من مزاجي المتقلب جدا.

زينب صارت تعرفني أكثر، الآن صرت واضحة جدا لها، وقراءتي بالنسبة إليها أصبحت كالسهل الممتنع، حالما أنظر إليها أو أقف إلى جانبها في ساحة المدرسة تتوقع حالتي النفسية، فرحة، حزينة، مكتئبة، متعبة، مستمتعة...، لا أعلم كيف وقع ذلك لكنه وقع. في بعض الأحيان يدخل أناس إلى حياتك ليلمسوا جانبا منك لم يكن معروفا حتى لديك، وتبقى المفارقة قيد السؤال: هل سيحافظون على التميز وبذلك يحافظون على ما لمسوه فيك أم سيتلاشون هكذا بضربة إعصار ويكسرون كل ما فيك؟ وزينب من النوع الحريص جدا على مشاعر الآخرين لكن هذا لا يعني أن يصير ذلك نقطة ضعف لديها، فقد تنقلب رأسا على عقب إذا ما كان هناك موقفا مؤثرا عليها كذلك.

الأيام تمر بشكل روتيني هنا، ولا شيء يبعث عن التشويق أو التغيير سوى أن المفتشين التربويين قد يمرون بالمؤسسة ونحن لا نعلم متى قد يفعلون ذلك، لدى صرنا على أعصابنا.

04 من كانون الأول (دجنبر) 2020

مر وقت طويل منذ تدويني لآخر كلمة على مذكرتي الصغيرة، وها أنا أعود إليها اليوم لأسطر عليها بضع كلمات أخرى، غدا هو آخر يوم عمل قبل العطلة البينية الثانية للدورة الأولى، تغير الجو بشكل ملحوظ في الآونة الأخيرة، صار البرد قارسا جدا، والأمطار لا تتوقف عن التساقط، اتصل بنا مدير المؤسسة مساء ليخبرنا أن المفتشين التربويين قد يمران بنا صباح الخامس من كانون الأول (دجنبر) 2020. فكرنا بشكل جدي في تحضير وجبة فطور تليق بهما، لكن سرعان ما انقلب كل شيء رأسا على عقب. ما إن حل الليل، حوالي الساعة الثامنة حتى بلغت سرعة الرياح السبعين كيلومتر في الساعة، والأمطار تستمر في الهطول بشكل مخيف، انقطع الكهرباء وأنا بمنزل زينب إلى جانب ربيعة نتبادل أطراف الحديث تارة ونصمت لننصت للأمطار تارة أخرى. فجأة، اتصل المدير بي يطلب مني أن أخرج لأغير مكان سيارتي، في أول الأمر لم أفهم السبب لكن عند خروجي صدمت بمنظر جدع شجرة من أشجار الزيتون قد سقط إلى جانبها مباشرة، الجدع الذي كاد يصدم واجهتها الزجاجية. أدرت مفتاح السيارة وأبعدتها عن المكان قليلا، كانت زينب إلى جانبي في هذه اللحظة، نظرت إليها ونظرت إلى السيارة وإلى السماء، أنعيش حقا لحظة واقعية أم أنني أتابع فيلم رعب؟ عدنا إلى البيت نرتجف من شدة البرد والريح تدفعنا كريشة، هل حقا سنغادر غدا؟ كيف ستكون الطريق إلى تازة يا ترى؟ أسئلة تبادرت إلى ذهن كل منا لنتأمل ليلتنا المظلمة هذه في هدوء تام، خاصة بعد انقطاع التغطية وشبكة الأنترنيت.

أشعر بالتوتر في الظلام، توتر لا أستطيع مقاومته حتى وإن شئت ذلك، حالة صارت تتملكني منذ كنت أدرس بفرعية "العواودة"، هي كذلك من بين الإصابات التي خرجت بها من معركتي هناك، كانت ثلاثة أيام سوداء، غادرت كل من أمال وربيعة مقر العمل وبقيت وحدي عشية السبت انقطع الكهرباء وصار الظلام بعد غروب الشمس حالكا، قاتلا، لم أستطع النوم وظللت الليلة كلها وأنا أغير بطاريات المصابيح، أغفو لدقائق من شدة التعب وأستيقظ مجددا مفزوعة على صوت حركة الفئران الصغيرة التي تنخر في الحائط من الخارج محاولة الدخول إلي، مرت الليلة الأولى ببطء شديد وحل الصبح وأنا لا أكاد أفتح عيني لأرى نور الشمس المنبعث من النافذة، لأول مرة أحدث نفسي أني لو استطعت لأمسكت الشمس بين يدي لأضمها إلي وأحتفظ بها لدي، شعور كان يتزايد ويحتد كلما اقترب الوقت من الغروب والكهرباء لا وجود له، وما زاد الطين بلة أن هاتفي خلص شحنه، حينها تأكدت أنني فقدت البوصلة، لا كهرباء، لا تغطية، لا شيء أضيء به هذه العتمة، مرت الليلة الثانية كعذاب القبر وأنا أستمع لكل تلك الأصوات المحيطة بي.

عدت إلى وعيي على صوت ربيعة تسألني إن كنت سأخلد إلى النوم، أجبت بالإيجاب وارتديت معطفي المبلل، ودعنا زينب وغادرنا في اتجاه سكنانا، تركت ضوء الهاتف يتناثر في أركان الغرفة وخلدت إلى النوم فورا، لا أريد أن أظل مستيقظة هنا، لا أريد.. !

08من كانون الأول (دجنبر) 2020

رن منبه الهاتف، الساعة تشير إلى الثامنة صباحا، وأنا لا أقوى على الحراك، ارتديت ملابسي، أخذت كوب قهوة وحملت حقيبتي لأغادر بسرعة. مرت ثلاثة أيام منذ عودتنا إلى تازة المدينة الضائعة، واليوم سأصطحب زينب إلى إحدى العيادات الطبية المتخصصة في طب الأعين، زينب التي لاحظت أن نظرها صار متقلبا ومشتتا في الأيام الأخيرة، فقررت أن تزور طبيب عيون لتطمئن على حالتها، وكنت من المشجعين لها على ذلك واعدة إياها أني سأرافقها ولا شك عند الطبيب.

وصلنا باكرا والعيادة مكتظة بالناس فقررنا أن نخرج في جولة لشراء بعض الحاجيات سريعا في انتظار موعد الفحص، جولة واحدة هنا وهناك وها هي أسماء تتصل طالبة المساعدة في بعض الأعمال المكتبية بمقر عملها، لم تعترض زينب على بقائها لوحدها أثناء الفحص بينما التحقت بأسماء لبضع دقائق، كنت مشتتة الذهن طوال الوقت بين صديقتين عزيزتين تحتاجان إلي، وفي طريق عودتي إلى العيادة اتصلت بزينب أسألها عن المستجدات:

- ألو، كيف الحال؟
- أهلا.
- ماذا هناك؟ ما الأمر؟
- الشرح طويل، أين أنت؟
- في طريقي إليك، انتظريني.
- حسنا، بانتظارك.

أغلقت الهاتف وأسرعت في خطاي، كنت أعلم أن هناك شيئا ما، الحال ليس على ما يرام كما تدعي، كان علي أن أصل إليها في أسرع وقت.

ملامح زينب مختلفة تماما عن السابق، هالة حزن وتوتر بادية على محياها، سألت عن السبب بعد ركوبنا السيارة، وانتظرت الإجابة دون حراك.

- لقد قامت الطبيبة بفحصي، واتضح أن هناك انتفاخ بالعصب البصري.
- وما السبب؟
- حسنا قد يكون السبب ارتفاع الضغط، وقد يكون شيئا أخطر.

- ماذا تقصدين بأخطر؟

- قد يكون ورما.

أخذت هاتفي وغادرت السيارة، اتصلت بوالدتها أعلمها أنها ستتناول طعام الغذاء معي بأحد المطاعم لأني دعوتها توا، أغلقت الهاتف وعدت إلى السيارة أمام دهشة زينب لما فعلت، أدرت المفتاح دون البوح بكلمة، واتجهت إلى مقهىthe time ، هناك طلبت طبقي المفضل لديهم لنا معا، وحال مغادرة النادل سألت زينب شرحا مفصلا لما أخبرتني به، ولأنها سبق ومرت بتجربة كممرضة ولها دراية بمثل هكذا حالات، قدمت لي شرحا مبسطا لأفهم ما يجري وما يجب القيام به من خطوات، أولها زيارتها لطبيب مختص في أمراض القلب من أجل التأكد من حالة الضغط وتأثيراتها. حاولت جاهدة أن أخرج زينب من حالة التوتر تلك بالرغم من أنني كنت أعرف جيدا صعوبة الموقف عليها وعلي، أنا التي مررت بتجربة قاسية بسبب ورم لعين مع خالتي، ولن أنكر أنني لست مستعدة بتاتا لخوض التجربة مرة أخرى مع شخص عزيز علي وله مكانة بحياتي اليوم.

اتصلت أسماء مرة أخرى تسألني عن مكاني، اعتذرت منها وأخبرتها أني منشغلة قليلا، فلا مجال للشرح والتفصيل، وعدت بزيارتها في بيتها وقضاء الليلة معها خاصة وأنها قد أخذت موعدا عند طبيب الأسنان لاقتلاع ضرس، وأنا أعلم جيدا رهابها من الأطباء والعمليات مهما كانت بسيطة. أغلقت الهاتف مجددا وعدت إلى حديثي التحفيزي مع زينب.

في الحقيقة لم يكن من شخص يحتاج إلى تحفيز غيري أمام كل هذه المواقف التي أتت دفعة واحدة.

أوصلت زينب إلى منزلها متمنية لها كل التوفيق والصحة الجيدة و وعدت بزيارتها بعد غد بما أني سأقضي اليوم التالي مع أسماء، تقبلت انشغالي ووعدت هي الأخرى بأن تتصل بي فور خروجها من عيادة الدكتورة م-ش أخصائية أمراض القلب والشرايين التي قررت زيارتها.

أدرت مفتاح السيارة، وهذه المرة في اتجاه منزل أسماء بعد أن اشتريت بعض الأغراض لتحضير وجبة خفيفة مساء، لأتفاجأ باتصال منها في ذات اللحظة تسألني عن مكاني، هذا الذي ليس من عادتها، أخبرتها ببساطة أنني في طريقي إليها، لكنها فاجأتني مرة أخرى بمقترح الذهاب إلى "باب بودير" رفقة أستاذ صديق لها، نظرت إلى الساعة التي تشير إلى الخامسة مساء، حاولت مناقشة الموضوع معها لكنها كانت متحمسة فطلبت منها انتظار وصولي، كنت أود إقناعها بالعدول عن رأيها خاصة وأني كنت متعبة ولست بمزاج يسمح لي بأن أذهب في نزهة كهذه، وبما أنني سبق وتراجعت عن الكثير من النزهات والمقترحات لأجل صديقتي، ففي كل مرة كانت ترفض فيها الخروج من البيت لأنها متعبة ونفسيتها لا تسمح لها بذلك، كنت

أتفهم حالتها وأظل معها لأساعدها على تجاوز ذلك، أوليس الصديق وقت الضيق؟! وصلت أخيرا، دخلت المنزل فوجدتها تحضر نفسها للمغادرة.

- أسماء أعتذر منك لا أستطيع الذهاب في هذه النزهة.

- كيف ذلك؟ لم؟

- لأني متعبة، ولست بمزاج يسمح لي بالتنزه، أرغب فقط في أخد حمام دافئ والبقاء بالبيت.

- ليس من عادتك رفض الذهاب في نزهة كهذه، خاصة وأنك تعشقين فصل الشتاء والثلوج تتساقط.

- لكنني متعبة حقا، وحتى إن رافقتك لن أكون على سجيتي، تراجعي وابقي معي.

- أنا متعبة كذلك ومتوترة وأرغب في الذهاب لأستمتع بالجو وبياض الثلج أملا في تجاوز حالة الملل هذه.

غادرت المكان في حالة صدمة، كنت أتوقع أن تتعامل صديقتي كما أتعامل عادة، لكنها استمرت فيما كانت قد خططت له. قمت بجولة بالسيارة لأتجاوز هذا التصرف الغريب وأهدئ نفسي، ثم عدت إلى البيت.

- هل عدت من نزهتك؟

- نعم، وصلت للتو.

- كنت أرغب في العودة للمبيت عندك ومرافقتك غدا إلى عيادة الطبيب لكنني لم أتمكن من ذلك، الجو بارد جدا وقد أخذت حماما قبل قليل، لهذا سألتحق بك غدا صباحا لنتناول وجبة الفطور معا وبعدها أرافقك إلى العيادة، وأعيدك إلى البيت مجددا لترتاحي.

- وما نفع تناول الإفطار معا إن لم تأتي الآن؟ لا داعي لذلك.

- كيف لم أفهم؟

- يمكنك أن تقليني إلى العيادة غدا، وحمزة سيظل معي حتى أنتهي.

- حسنا لا بأس يمكنني البقاء أيضا، لا أريد تركك وحدك.

- لا عليك، لقد أخبرته أنه سيرافقني وحده، لا داعي.

- هل تواجدي سيحدث إزعاجا لكما؟

- لا، لكن سبق وطلب مني أن يرافقني و وافقت، لدى لا داعي لذلك.

أغلقت الهاتف، وضعته جانبا، ابتسمت لغبائي، أهذه أسماء حقا؟! أهذه صديقتي التي أعرفها منذ ثمان سنوات؟ ما هذا؟ ما الذي يحدث؟

09من كانون الأول (دجنبر) 2020

استيقظت صباحا، ارتديت ملابسي بمنتهى الإحباط، غادرت البيت متثاقلة، وعند وصولي كانت أسماء قد انتهت من تحضير نفسها، لاحظت التوتر باديا عليها، كنت أتأملها في كل خطوة تخطوها، وأتساءل: من تكون؟

عشر دقائق كانت كافية لنكون بباب عيادة الدكتور "ن-ف"، انتظرنا قليلا وصول صديقها، وبعد ذلك غادرت المكان وأنا أسألني: فاطمة الزهراء ما الذي يجعلك تتحملين كل هذا؟ وأجيبني في ذات الوقت: إنه المبدأ يا فاطمة الزهراء، المبدأ. رحت أسير في الشارع كتائهة دون وجهة محددة، فلا أنا قادرة على العودة إلى البيت، ولا أنا باستطاعتي المكوث هناك وحسب. أخذت هاتفي واتصلت بزينب:

- صباح الخير، كيف حالك اليوم؟
- أهلا، بخير وأنت؟
- أتجول في الشوارع، ما أخبارك؟ أينك الآن؟
- بعيادة الدكتورة أنتظر موعد الفحص.
- حسنا سألتحق بك.
- أوكي، بالانتظار.

من الصعب جدا أن تعيش موقفا كهذا، والأصعب أن تعيشه مجددا وأنت تكتب عنه في مذكراتك، وأن تعيده في كل مرة تقرأ فيها كتاباتك هذه، تدونها حرفا فحرفا وأنت تعرف جيدا أنها قد تقع غدا بين يدي الكثيرين، هناك من سيضحك ساخرا من غبائك، وهناك من سيعتبرك ساذجا، وإن كنت محظوظا قد ينظر إليك على أنك شخص معطاء، وآخر قد يراك تضخم الأمور أكثر من اللازم، لكن ماذا عنك أنت؟ وأنا؟ أنا هنا، من أكتب هذه الكلمات وأسجلها الواحدة تلو الأخرى، وأعيد قراءتها مرات ومرات؟ ماذا عني؟

دخلت العيادة، كراس مبعثرة ذات اليمين وذات الشمال، والمرضى هنا وهناك ينتظرون الفحص، الكل ينتظر فحص هذا العضو الودود اللدود، نعم القلب المسكين الذي تتعلق به حياتنا، يضخ الدم لينتشر في جسمنا بشكل متقن، وأي خلل مهما كان بسيطا سيقلب كل الموازين، هذا القلب الصغير الذي يؤلمني الآن ألما لا يحتاج طبيبا بل وقتا والكثير من الحروف. جلست إلى جانب زينب أنظر إليها، أتأمل هدوءها وتركيزها اللذان يخفيان خوفها وتوترها، تسألني وهي في قمة انشغالها عن سبب حزني، أبتسم وعيناي تكادان تستسلمان، وأغير الموضوع، لا وقت للوقت فكيف سيكون هناك وقت لهذا الحطام. اعتذرت منها وغادرت المكان على أن أتصل بها فيما بعد لأطمئن عليها.

بالبيت كنت أحضر السلطة خطوة خطوة، وأسماء تنظر إلي متكئة على سريرها، تشاهد خطواتي وأنا أعمل، ترى في تأملها هذا هل استطاعت قراءتي؟ هل لامست مقدار الحزن الذي بداخلي؟ هل استطاعت رؤية كرامتي المكسورة وهذا الكبرياء المحطم المتناثر هنا وهناك؟ أم أنها لم تتجاوز ابتسامتي البسيطة وانشغالي بتقطيع الخضار وطبخ الأرز؟

أنهيت التحضيرات وتناولنا وجبة العشاء، شاهدنا فيلم خيال علمي، وخلدنا للنوم.

10من كانون الأول (دجنبر) 2020

الثامنة صباحا، أسماء عليها الذهاب إلى العمل، وأنا أريد أن أقود فقط لأتجاوز ذهولي، وصلنا إلى مقر عملها، توقفت جانبا، من المعتاد أن أسماء تنزل حال وصولنا لتلتحق بعملها، لكنها هذه المرة ظلت في مكانها، تجلس بصمت وأنا إلى جانبها لا أنطق بكلمة، ننظر أمامنا دون حراك، مرت عشر دقائق، فسألَت:

- لا أعرف إن كانت العيادة مفتوحة!

- تأكدي من ذلك.

- يبدو أنها كذلك، حسنا سأتركك.

- لا بأس، ألن تتناولي شيئا قبل ذهابك.

- قد أتناول بعض البسكويت.

ركنت السيارة بعد مغادرتها جانبا، وخرجت أبحث عن مقهى أو مقشدة، اشتريت عصيرا وبعض الفطائر بالجبن وعدت إليها من فوري، سلمتها الكيس دون البوح بحرف وغادرت المكان.

قضيت بقية اليوم مع زينب وخالتها التي تعرفت عليها توا، نتمشى تارة ونتوقف لنتبادل أطراف الحديث تارة أخرى...، وها أنا أعود إلى حال سبيلي، أسير وحدي في هذا الزقاق المتآكل، تدمع عيني تارة لفرط سذاجتي وأبتسم تارة أخرى عندما أتذكر مدى حمقي واندفاعي في كل شيء.

مر اليوم بسرعة وحل الغد القاسي، اتصلت أسماء بي لنحضر معا بعض الأغراض قبل سفرها إلى مدينة فاس لتقضي نهاية الأسبوع مع عائلتها هناك، ساعدتها في ذلك طبعا، على أن أقوم بإيصالها إلى محطة القطار. كانت أسماء متوترة طوال الوقت، وكثيرة الملاحظات، كل فعل أقوم به تستنكره وتنتقده أو تعقب عليه بازدراء، حتى الطريقة التي أقود بها السيارة كانت محط نقد وتعقيب. لم أفهم، منذ متى صارت أسماء هكذا؟ منذ متى لم تعد أعز صديقة لي مقتنعة بقدراتي وبي؟ كل هذه الأسئلة كانت تدور وتجول في رأسي الذي يكاد ينفجر، لكنني احترمت توترها هذا خاصة أنها في طريق سفر يحتاج التركيز أكثر.

نزلت من السيارة مودعة وداعا كالصقيع وغادرت، وعدت إلى الطريق مجددا، وإلى أسئلتي الجارحة جدا والمؤلمة جدا، جولة واحدة من التفكير القاتل، جولة من الحيرة.

الحرف في قلبي نزيف دائم

والحرف عندك ما تعدى الإصبع

11 من كانون الأول (دجنبر) 2020

- أهلا فاطمة الزهراء، كيف الحال؟ سأل بدر على الهاتف
- أهلا بك، بخير وأنت؟
- بخير ما دمت بخير.
- ما جديدك؟
- كنت أرغب في زيارتك بتازة وإحضار بعض الكتب لك لكن الشروط لا تسمح.
- لا عليك قد تسمح العطلة القادمة.
- أكيد، أفكر في أن أبعث لك الكتب على الأقل عبر الأمانة.
- لا يمكن ذلك لأنني سأغادر غدا الأحد.
- اممم حسنا لما لا أتصل بأسماء كي تحضرهم لك عند عودتها إلى تازة.
- فكرة جيدة، سأتصل لأشرح لها الأمر.
- طاب يومك.
- وأنت بالمثل.

اتصلت بـ أسماء كان الخط مشغولا، أعدت الاتصال لاحقا وأنا في قمة انشغالي، ردت علي أخيرا لكنني لم أكن أسمع شيئا، كانت موسيقى صاخبة تنبعث في الأرجاء، طلبت منها أن تخفض من حدتها قليلا لأنني بحاجة للتحدث إليها، ولم تفعل.

- سأتصل بك لاحقا عندما أكون بمكان بعيد عن الموسيقى. كان جوابها سريعا.
- لكنني بحاجة للتحدث إليك الآن. أوضحت
- ليس الآن، سأتصل لاحقا. ردت

انقطع الاتصال، ألغيت فكرة إرسال الكتب بشكل قطعي في ذات اللحظة، وألغيت معها كل فكرة أو عذر كنت أتمسك به لأتجاوز حالة الإهمال هذه.

الجو يبعث على النهايات...

نهاية اليوم..

نهاية الأسبوع..

نهاية السنة..

نهاية الحكاية..

تأتيني الصداقة متعثرة..

بصفعة غدر قاسية..

تبكي الذكريات والتفاصيل..

الصغيرة.. الصغيرة..

قالب الحلوى..

الشوكولاتة..

شارع طويل.. طويل..

وزقاق قصة أنهكها الوداع..

تتلوى الفجيعة بين يدي..

وأحزن لحزن اليمامة..

فتصير بضربة حب صديقتي..

هي هاذي الصديقة..

نسير هنا وهناك بخطى ثابتة..

نرمي الأشلاء أطراف الحديث..

ونبتسم، نبتسم ببراءة طفل بالبدايات..

نتعثر..

نتخبط..

نسقط..

نتلوى..

نتألم..

ونستمر في هاذي الحياة..

حيتنا..

ويسألونك عن علاقة..

تتكسر على أفواه العابثين كلاما..

يسألونك عنا..

ونحن خيوط تنفلت..

من بين أصابع الحكاية سلاما..

وعلى أفواه العابثين وأنت كلاما..

ننكسر..

ننتحر..

نرتمي انهيارا..

ونظل على أفواه العابثين..

أنا وأنت كلاما..

ماذا قد نفعل..؟

وماذا قد أفعل..؟

وأنت ترمين قصتنا الجميلة شتاتا..

وأي إيمانا أحتاج لترك هذا السبيل..؟

هذا السبيل..

كرامة واحتراما..؟

12من كانون الأول (دجنبر) 2020

أحضر حقيبتي بمنتهى التعب، والمعطف الأسود مرمي على طرف السرير، فنجان قهوتي يترنح ذات اليمين وذات الشمال في يدي المرتعشة، السقوط عند الارتفاع الشاهق غالبا ما يكون مدويا وقد يكون مدمرا، وأنا رفعت سقف توقعاتي وانتظاراتي عاليا.. عاليا جدا، وها هي تسقط أمامي فكرة.. فكرة. ترى أيهما أشد ألما؟ الاختناق من الكورونا التي باتت أمرا عاديا متناسيا أم اختناق الأفكار المندفعة نحو الانتحار؟ وأي الإجابات دفعت بي لاتخاذ قرار تربية قط بالبيت؟ هذا القط الصغير الذي توفيت والدته بعد حوالي أسبوع من ولادته، تركته رضيعا دون أن تعلمه شيئا من دروس الحياة، يركض في أنحاء مستودع قريبنا السيد مصطفى والد إبراهيم زوج أختي، يركض القط الصغير ويلاعب كل من دخل المستودع، أحببته كثيرا وتأثرت بحكايته الحزينة فاتخذته رفيقا وصديقا.

كل حاجياتي مرتبة في صندوق السيارة، ودعت والدي وأختي وقبلت طفلتها الصغيرة هداية، أدرت المفتاح وعدت إلى الطريق مجددا كعادتي مع فرق بسيط هو "دورايمون" الصديق الجديد. مررت بزينب ثم ربيعة وانطلقنا في رحلتنا عودة إلى العمل، بدا على ربيعة عدم ارتياحها لتواجد قط معنا في السيارة، فهي لا تحب القطط، هذا الذي جعلني أبدل مكانه وأضعه إلى جانب زينب، وحال وصولنا أدخلته بيته الجديد ليلعب قليلا ويرتاح.

انتظرت طوال اليوم اتصالا واحدا من أسماء لتسأل عن أحوالي خاصة وأنها تعرف جيدا أنني سأعود إلى مقر العمل اليوم، وتعرف مدى صعوبة هذه المنعرجات المليئة بالحفر والمنزلقات. لم تتصل ولم تبعث برسالة، ببساطة لم تسأل. اعتذرت لكرامتي بالنيابة، ولاعبت دورايمون حتى غالبني النعاس، أدخلته سريره المحمول وخلدت للنوم.

قيل:

"لا يوجد شكل ثابت للإنسان، إننا نتغير باستمرار، تغيرنا الكلمات، المواقف، الأيام"! ...

"نحتاج إلى منبه مستمر يذكرنا أن الناس يتغيرون"!!!

ويقول أحمد شوقي:

"هجرت بعض أحبتي طوعا!

رأيت قلوبهم تهوى فراقي..

نعم أشتاق، ولكن وضعت،

كرامتي فوق اشتياقي..

أرغب في وصلهم دوما ولكن

طريق الذل لا تهواه ساقي!!

19 من كانون الأول (دجنبر) 2020

أسبوع من العمل المتسم بالجدية التامة والالتزام كما تعودنا طوال الأسابيع والسنوات السابقة، لكن بالرغم من الانشغال بتحضير الدروس والوثائق التربوية والإدارية إلا أن العمل بالنسبة لي كان مملا، وبصراحة تامة لم أكن في حالة ملل بل في حالة إحباط وانكسار، كنت بحاجة للخروج من اختناقي هذا وأخذ نفس عميق، كنت بحاجة للمشي أو الجري، لم أنم طوال ليلة أمس، واتخذت قراري أخيرا سأعود إلى تازة.

- أ أنت متأكدة مما تقولين؟ سألت ربيعة
- نعم، أحتاج الذهاب إلى هناك، أحتاج تغيير المكان.
- إذا كان الأمر كذلك فلا بأس.

أخبرت زينب بقراري، فاتخذت قرارها بمرافقتي، لم ترغب في تركي أقود السيارة وحدي وأنا بهذه النفسية المحطمة، كان قرارا مفاجئا وأحمقا، لكننا اتخذناه وانتهى الأمر. انتظرتها حتى انتهت من حصصها المسائية ثم انطلقنا عائدين من حيث ذهبنا الأسبوع الماضي، توقفنا بمنتزه "مرطيشة" للاستراحة وأخذ بعض الصور، تجولنا قليلا في تلك الغابة جولة تنسمت بكلمات من شعر عنترة بن شداد ومحمود درويش وأحمد مطر، وأنهيناها باللعب بالأرجوحة، نلعب ونصور الأحداث لنوثقها بالذاكرة، غادرنا بعد حوالي نصف ساعة، وتوقفنا مرة أخرى بقرية "مكناسة" لنتناول وجبة شواء، ومن تم أكملنا رحلتنا.

بالبيت وضعت دورايمون في المكان المخصص له، وجلست ألاعب أميرتي الصغيرة هداية، ارتحت كثيرا، أحسست وكأنني في حالة تأمل عميق واستكانة. لم أتصل بـ أسماء وهي كذلك لم تفعل بالرغم من أنها على علم بقدومي، قضيت نهاية الأسبوع بين الكتابة ومساعدة والدي في بعض الإصلاحات.

- كيف حالك اليوم؟ سألت زينب
- بخير وأنت؟
- بخير، هل تجاوزت حالة الملل؟
- الآن أفضل بكثير.
- متى نشد الرحال؟
- الاثنين صباحا، قد أمر بك عند السادسة والنصف.
- حسنا، سأكون بانتظارك.

"هناك أناس طيبين يدخلون حياتك في الوقت المناسب جدا"

21 كانون الأول (دجنبر) 2020

السادسة صباحا ارتديت معطفي الأسود الذي اقتنيته مؤخرا بدوق زينب، حملت حقيبتي وخرجت مع والدي من البيت في اتجاه السيارة، أدرت المفتاح وسمعت آخر الوصايا من والدي العزيز، ثم ودعته وغادرت، كان الطريق إلى بيت زينب في هذا الوقت الباكر خال من كل شيء، لا سيارات ولا مارة، لا شيء، سرت فيه بكل حرية على أنغام فايا يونان، متأرجحة بين أغنياتها "حب الأقوياء"، "الطريق إليك"، "يا قاتلي"...، اتصلت بزينب أعلمها أني بالباب، انتظرت قليلا، وها نحن في طريقنا إلى "أهل مولة"، مررنا بأحد امسيلة، كان الضباب كثيفا مما صعب علينا الرحلة لكن بالرغم من ذلك لم نتوقف عن جعل الـأمور تبدو بسيطة وتافهة تثير الضحك، توقفنا لنصف ساعة حتى نتناول طعام الفطور، كنت أعلم أن زينب أرادت أن تؤخرنا قليلا إلى أن تشرق الشمس ويتلاشى الضباب الذي أمامنا، لكنني لم أناقش الموضوع. عدنا لإكمال رحلتنا ومعنا كاميرا الهاتف تصور كل ما نمر به من أحداث، كان صباحا مثاليا، تجاوزنا تعبنا والجو البارد والسرعة العالية التي كنت أسير بها بالمرح والضحك.

وصلت متأخرة قليلا إلى العمل بسبب توقفنا لمساعدة رجل أغلق على مفتاح سيارته داخلها ولم يستطع فتحها، لم أستطع أنا كذلك أن أساعده بالرغم من رغبتي في ذلك، تمنيت له التوفيق وتأسفت لحاله وغادرنا. الآن نحن بالمؤسسة، زينب أخرجت الحقائب من صندوق السيارة ونقلتها إلى منزلها، وأنا التحقت فورا بالقسم. هذه المرة لم أحضر دورايمون قطي الصغير معي لأني لاحظت أن ربيعة ليست مرتاحة له، وكنت متأكدة أنها لن ترتاح لوجوده أبدا، لذا قررت أن أتركه بالبيت مع والدي.

مر يوم آخر دون أن تتصل أسماء أو تسأل عن الأحوال، لكنها في المقابل نشرت صورا لها مع أختيها في نزهة ربما أو رحلة، لست أدري ولم أعد أسأل أو أهتم ما دامت لم تعد تهتم، قضيت الليلة متعبة وآلام الرأس تخرق جبيني، دونت على صفحتي بفايس بوك أني مريضة، علقت كأي غريب آخر يمارس بروتوكول التعارف الأول "بالشفاء العاجل"، يبدو أنه قد انتهى المشوار ما دمنا قد عدنا إلى بروتوكول التعامل السطحي.

رافقتك السلامة

30 من كانون الأول (دجنبر) 2020

أقل من 48 ساعة تفصلنا عن العام الجديد، لم أتحدث عن الكورونا منذ مدة ليست لأنها انتهت وتلاشت فالأعداد لاتزال في ارتفاع كما كان الأمر قبل عام، لكنني تعبت من التعداد أمام هذا الكم من المشاكل والمطبات الحياتية التي عانيت منها طوال هذه المدة، وبالرجوع إلى الفيروس الخطير الذي لازال ينخر في العالم شيئا فشيئا مع اختلاف بسيط هو وجود لقاح اليوم، وهو في طور التوزيع عبر العالم كله، لقاح ظهر متزامنا مع الإعلان عن ظهور سلالة جديدة من فيروس كورونا بدأت تنتشر في العالم الغربي، نعم يا سادة سلالة جديدة من فيروس كورونا جعلت العديد من الدول الغربية تعلن الحجر وإغلاق المدن وتوقيف مؤقت لرحلاتها نحو بلدان أخرى.

- وأنتم ماذا عنكم؟

نحن في وطننا الجريح نصارع كورونا 2019 كما اعتدنا بوضع الكمامة وغسل اليدين وتعقيمهما، وفي نفس الوقت نتصدى للسلالة الجديدة بإعلان حضر التجول بالمدن السياحية الكبرى بدء من الساعة التاسعة ليلا حتى الصباح، ستتساءلون الآن أليست هي نفس الإجراءات التي كانت قبل سنة للتصدي ضد فيروس كورونا، وسأجيبكم تماما كما قلتم حتى أنني وأنا أكتب هذه الكلمات لدي ذلك الشعور وكأنني سبق وكتبتها نفسها من قبل.

تعودنا على المعايدة في رأس السنة، نقول انتهت السنة الماضية وها نحن نستقبل السنة الجديدة، لكننا اليوم أظننا سنقول مرت الكورونا القديمة والعالم يسارع لاستقبال الكورونا الجديدة، ونحن لم نتجاوز جرحنا الأول في وداع الأحبة ممن فتك بهم الوباء اللعين، فكيف إذن سنتحمل موجة جديدة بسلالة أكثر عدائية وأسرع انتشارا؟ وماذا لو كانت مجرد إشاعة من أجل التشجيع على أخذ اللقاح؟ هذا اللقاح الذي اختلف فيه العلماء بين قائل أنه فعال حتى مع السلالة الجديدة من الفيروس وبين قائل أنه ليست له أية فاعلية مع هذه الأخيرة؟

- مهلا.. مهلا، أليست نفس الأفكار التي تبادرت إلى ذهننا قبل سنة؟ تلك الأفكار التي تقول أن الفيروس لا وجود له وأنه مجرد إشاعة وفقط للتأثير في النظام العالمي وقلب الموازين.

- نعم، وكأنني أقرأ ذلك مجددا.

- أيعني هذا أننا نبدأ من جديد؟

- لا أدري، تعلمين أمر المقولة الشهيرة "التاريخ يعيد نفسه."

- حسنا ونعلم كذلك أنه بالتركيز والتحليل فالتاريخ لا يعيد نفسه فعليا، الشروط تتغير لكل مرحلة من مراحله وبالتالي تسقط المقولة.

العالم ينتظر اللقاح بالرغم من الاختلاف بين مؤيد لأخذه ومحذر منه، الكل ينتظر ليعرف من هو الذي على صواب في أمره، ونحن كذلك ننتظر بتردد بالغ في شأنه، أنأخذ الحقنة اللعينة أم نترك أمرنا لمناعتنا المعجزة، هذه المناعة التي أنقدتنا طوال السنة البائسة، طوال الأشهر الكسولة والأيام الثقيلة الظل.

31من كانون الأول (دجنبر) 2020

"آخر صباح ومعه آخر كوب قهوة

خفيف وبدون سكر.. لهذه السنة

مع أطيب المتمنيات"

31/12/2020

هذه أول كلمة كتبتها في هذا الصباح الذي يعد من أكثر صباحات ديسمبر برودة، كتبتها مصحوبة بكوب قهوة ساخن خفيف وبدون سكر، حملته معي إلى قسم الأستاذة والصديقة الغالية زينب، طبعا لم يكن الكوب لي بل لها، الكل يعرف أنني من عشاق السكر، لكنني تعودت مؤخرا على أن أحضر قهوتي الخفيفة صباحا وقبل أن أضع بها السكر الحلو أحتفظ بفنجان لـ زينب، هي التي توقفت عن تناول الأشياء الحلوة حفاظا على صحتها، وبالرغم من أنها دعتني لأقوم بنفس الشيء إلا أنني لم أستطع، لكل منا شيئا أدمنه وأنا أدمنت القهوة الحلوة صباحا.

شربنا قهوتنا معا ونحن نخطط لدخولنا المدينة الضائعة بعد غد السبت، نتناول طعام الغذاء معا عند وصولنا، نشتري بعض الحاجيات، بينما نترك التسوق ليوم الأحد صباحا، على أن نقضي مساءه في جولة واستراحة نتحضر من خلالها لعودتنا صباح الاثنين إلى مقر العمل. نخطط لما بعد غد ولا نخطط للغد، نعم الغد الذي يعد الأول من يناير 2021 السنة الجديدة، وكأننا بذلك نحدث أنفسنا إنها سنة عادية كالبقية لا جديد فيها قد يجعلنا نحتفي، وفجأة نتذكر كم من شخص سنودع وجوده، وكم من شخص سنبكي حسرة على فقدانه، وكم من شخص سنغادره نحن طواعية حفاظا على كرامتنا بعدما لاحظنا أننا لم نعد نشكل له حافزا، ربما لأنه صار غير مقتنع بنا وبوجودنا، وربما تجاوزنا لاكتشافه علاقات جديدة أدهشته أكثر فصرنا بالنسبة له أشخاصا عاديين فاقدين لتميزنا الذي أدهشه في يوم مضى، ومن يدري قد يكون هو الآخر غير منتبه فعليا لكونه يفقدنا شيئا فشيئا لاقتناعه القطعي أننا لا نستطيع العيش بدونه أو على الأقل أننا لا يمكن أن نبتعد عنه ببساطة، ولما لا يكون فقداننا هذا لا يشكل له فارقا من الأساس واثقا أننا نحن فقط من فقدناه ومن خسرناه حقا.. ! كل شيء ممكن! ..

أنهينا وقفتنا بابتسامة استقبال العام الجديد، ونظرة تعب تخفي خلفها جرحا عميقا، غادرت الساحة ودخلت القسم لأبدأ حصص المساء مع تلامذتي الصغار، تلامذتي الذين لا يعرفون عن انقضاء سنة واستقبال سنة جديدة سوى تغير التاريخ المكتوب على السبورة ويوم عطلة وحيد، كل سنة تمر يعانون البرد الشديد في أعالي الجبال، تجد بعضهم يكره المدرسة فقط لأنه يستيقظ في الصباح الباكر والظلام حالك، ليسير كيلومترات في العراء والصقيع بيدين متجمدتين وحداء بال يعيق السير أكثر مما يضيفه دفئا. هم حقا لا

يحتاجون فقط إلى محفظة وكتب ودفاتر بل يحتاجون كذلك لسترات، أحدية، معاطف، جوارب، وقفازات من الصوف، هم يحتاجوننا نحن الملايين والملايين ممن يملكون شيئا من كل هذا.

أقف أمامهم ألقي درسا في الإملاء وهم يحدقون بي، يحاولون نسيان الجوع والبرد والتركيز مع الدرس، فكيف إذن لهذا الجسد المرتعش أن يركز بمعدة خاوية؟

01 من كانون الثاني (يناير) 2021

اليوم، أول يوم في السنة الجديدة، يوم احتفاء، يوم عطلة، يوم للنوم بالنسبة لي لا أكثر.

قضيت الليلة مع زينب و ربيعة نتبادل أطراف الحديث كعادتنا، اتصل بدر لكن الهاتف كان بعيدا لم ألحظ ذلك إلا بعد مرور حوالي نصف ساعة، راسلته أعتذر وأعده بأن أتصل به فيما بعد، وعدت ألاعب هاتفي تارة وأنظر إلى صور المعارف والأصدقاء واحدا واحدا، كنا نرغب في الدخول إلى مدينة تازة لكن الطقس لا يناسب ذلك، هناك توقعات بهطول أمطار عاصفية وغزيرة، هذا الذي جعلنا نعيد النظر في الموضوع، ونؤجل رحلتنا أسبوعا آخر. هكذا مرت ليلة رأس السنة بالنسبة لنا كسابقاتها، لأجعل من فاتح يناير هذا الذي ينتظره الجميع للاحتفاء يوم نوم، أقضيه في غرفتي مع مذكرتي، هاتفي، أفلام الخيال العلمي، وسادتي، وفراشي الدافئ.

أجلس إلى حاسوبي الصغير هذا أدون آخر الكلمات، مرت سنة كاملة منذ أول كلمة بمذكرتي وها هي الكلمات الأخيرة تسطر اليوم مع بداية سنة جديدة، وقبل خمسة أيام فقط من عيد ميلادي الثامن والعشرين. أنظر إلى الأيام المتسارعة من حولي وأنا أخطو خطواتي شيئا فشيئا، لن تكون أيامي هذه شبيهة الغد وأبدا لن تكون الأيام القادمة شبيهة الأمس.

- ألو، أهلا كيف حالك؟ سألت أسماء على الهاتف

- بخير، وأنت؟

- بخير، ما أخبارك؟

- لا شيء، لا جديد يذكر.

- إذن ماذا هناك؟

- ماذا حول ماذا؟

- حسنا، غبت مدة خمسة عشر يوما دون أي اتصال أو مراسلة، ما الأمر؟

- تعلمين أنني من وقت لآخر آخذ استراحة.

- لا، لست على علم بذلك.

- في بعض الأحيان أحتاجها، هناك أيام يحتاج فيها الإنسان للراحة والابتعاد خاصة إذا كان متألما ومجروحا.

- في هذه الخطوة أليس هناك إعادة لبرمجة المعلومات، والأشياء والأشخاص؟

- كل ما في الأمر أنني مررت بوقت عصيب وكنت أحتاج للراحة.

- فاطمة الزهراء، أكثر من خمسة عشر يوما وأنت غائبة، ماذا هناك؟

- ماذا هناك في ماذا؟

- فاطمة الزهراء معتادة على الغياب ليومين أو ثلاث لا أكثر وتعود مجددا، هذه المرة غابت لأكثر من خمسة عشر يوما، فما السبب؟

- لدي سؤال لك الآن.

- نعم، تفضلي.

- لماذا انتظرت طوال هذه المدة قبل أن تتصلي، لماذا تسألين الآن؟

- أنت تعلمين أن لا مشكلة لدي مع الانتظار مهما طال.

- نعم، أنا من لدي مشكل بهذا.

- لهذا ممكن أن أنتظر أكثر من هذا، لكن بدا لي أن خمسة عشر يوما بالنسبة لك ليست عادية، ولم أحب الموضوع، ومن جهة أخرى تعلمين أنني في بداية كل سنة أقوم بترتيب كل الصفحات التي لدي.

- أهناك صفحة لم تتمكني من ترتيبها إذن؟

- صفحات وليس صفحة واحدة.

- إذن على الأقل جعلتك تحيدين عن عادتك هذه وتسببت في تأجيل ترتيب بعض صفحاتك.

- لا، أبدا لم يحدث، أنت تعلمين حتى في عالم الإدارة أظن أن المهلة لترتيب الأرشيف تكون حوالي خمسة عشر يوما من السنة الجديدة، لدى لم يفت الأوان بعد.

- إذن ما علاقة المشكل الذي أعاني منه وترتيبك لأوراقك الحياتية؟

- أنت جزء من هذه الصفحات.

- حسنا، تعلمين سبق وغبت من قبل عندما أحسست بالألم، ألم الروح.

- ليس كثيرا مرة واحدة أو مرتين.

كنت أشعر ببرد شديد، أرتجف حقا، ولكنني واصلت الإنصات والنقاش:

- حسنا هذه المرة حالتي كانت تحتاج فترة أطول، فالإنسان وفق عمق الجرح يحتاج وقتا.

- حسنا لنتحدث بصراحة.

- أوكي

- هل كنت سببا في جرحك هذا؟

- نعم، أنت، ولأنني لم أكن قادرة على مناقشته معك، فضلت الابتعاد.

- إذن ما المشكل.

- دعي هذا الموضوع لاحقا، لنناقشه عندما آتي الأسبوع المقبل إلى تازة.

- لا يهم، يمكننا مناقشته الآن كذلك على الهاتف.

- أسماء، نقاش كهذا يستحسن أن يكون مباشرة، اسألي من تريدين سيقول أن النقاش في أمور حساسة يستحسن ويفضل أن يكون مباشرة.

- تلك مبررات نقدمها لا أكثر.

- مبررات؟ تعلمين أنني أحبذ النقاش المباشر أما الهاتف فلا.

- بالنسبة لي لا يهم، ليس لدي مشكل.

- أعلم، المشكل لدي طبعا.

- حسنا، لنبدأ من البداية.

استمر النقاش بيننا حوالي ساعة وأربعين دقيقة، تحدثت بكل التصرفات الجارحة التي قامت بها أسماء خلال أسبوع العطلة ذاك، العطلة التي لم نستفد منها شيئا غير الضغط والكثير من الجراح، وصفعات متوالية تلقتها كرامتي واحدة واحدة، بدء من نزهة "باب بودير" التي رفضت الذهاب إليها، مرورا بموقفها من عدم قدرتي على المبيت ببيتها، ثم رفضها تواجدي معها بالعيادة الطبية، وصولا إلى تصرفاتها الساخرة أثناء قيادتي لإيصالها إلى المحطة. قدمت وجهة نظري بشكل مبسط جدا وواضح جدا، ورغم محاولات أسماء في تفسير تصرفاتها وتبريرها إلا أنني لم أقتنع، لأول مرة لم يكن كلامها مقنعا لي، لأنني ببساطة كل تصرفاتي في ذلك الأسبوع كانت تصرفاتها في الأصل وكل الإجابات التي قدمت، كنت مرآة لها أعكس صورتها وردودها.

استمر الحديث كنت أتحدث وأنصت لما تقول، أحاول فهم وجهتي نظرنا معا، أن أجد الخلل حتى نتجاوزه كما تعودنا، لكن فجأة جاءت الدقيقة الثانية والأربعون من المكالمة، هذه الدقيقة التي قلبت الموازين، وأوقفت تفكيري تماما.

- أسماء، لقد مرت سبع سنوات ونحن صديقتان، ألم تستطيعي معرفتي بعد؟ ألم تفهمي بعد أن فاطمة الزهراء عندما تكون في قمة الحزن أو الألم لا تبوح بشيء؟

- كلا، المعروف عن فاطمة الزهراء أنها تبوح وتصرخ وتناقش كل ما يزعجها.

- ليس دائما يا أسماء، ليس دائما. هذا هو الخطأ الذي يقع فيه الكثيرون.

- حتى وإن أقسمت لن يفيد، اسألي الأصدقاء المقربين منك عن هذا، اسألي حسام.

- ولما سأسأل حسام عن شيء كهذا، هل حسام أقرب إلي منك؟ الـأقرب إلي أنت، أنت من عليه أن يكون على علم بكل أحوالي.

- فاطمة الزهراء لم يعد هناك أي قرب بيننا -(ردت صارخة وأضافت)- أتعلمين لما ! لأنه ببساطة منذ البداية توهمنا أننا كنا صديقتين مقربتين، اشتركنا مشكلا وظننا حقا أننا نعرف بعضنا وتجمعنا أشياء مشتركة.

- جميل استنتاج رائع.

كل ما عشناه من مواقف طوال سبع سنوات صارت مجرد وهم، نعم، لقد توهمنا أننا نعرف بعضنا، توهمنا أن هناك أشياء مشتركة تجمعنا، هذا يعني أن هذه الصداقة الجميلة التي عشناها بكل تفاصيلها كانت مجرد وهم لا أكثر، كل ذاك العطاء والتضحية المتبادلة مرات ومرات مجرد وهم. لقد توقفت عن التفكير بمجرد سماعي هذه الجملة، لم يعد النقاش نقاشا كما كان بل صار مجرد بكاء على الأطلال بالنسبة لي. انتهى الكلام.

09 من كانون الثاني (يناير) 2021

ليست كل خططك يمكن تحقيقها، اليوم كان سيكون يوما استثنائيا برحلة استثنائية إلى مدينة تازة رفقة زينب، رحلة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ونهاية حكاية، قررت أن أشتري ساعة جميلة لـ أسماء بمناسبة السنة الجديدة، وهي أشد الناس علما بمعنى أن أقدم ساعة يدوية هدية، لكن الأمور لم تسر كما كنت أبرمج لها، فالطبيعة كانت لها كلمة أخرى، تساقطت الأمطار بغزارة والثلوج مما تسبب في توقف الحركة المرورية بين جماعة تايناست ومدينة تازة، لقد تعذر علي خوض المغامرة فأجلت رحلتي هذه إلى العطلة القادمة التي لا يفصلنا عنها إلا أسبوعين.

خرجت وزينب نراقب تساقط الثلوج، ونستمتع ببياضه الذي يداعبنا، أحببنا الطبيعة فأحبتنا وفتحت ذراعيها لنا ثلوجا. أتأمل المنظر أمامي، أبتسم، وأتساءل: كيف لسنوات من الصداقة، سنوات من العطاء المتواصل، سنوات من المواقف، سنوات من الحزن والفرح، الألم والابتسامة أن تكون مجرد وهم؟ أتأمل كل خطوة خطوتها في حياتي، كل حكاية مررت بها، وأنا أنصت للرائعة "سعيدة فكري" في أغنيتها الأخيرة "حكاية المرايا."

ما بقاش ينفع نخبي سري عليك

يا مرايتي يا لي شفت دموعي أنا فيك

يمكن تبدلت وبالشكل لي يرضيك

جيت اليوم زنتي لي تقولي كيف نجيك

عارفة شكون غير من ملامحي

خليني نتصرف بلا ما تقتارحي

طلبك مرفوض وما غانخليك تسامحي

روحي مجروحة وما زال نقولها كافحي

وباقا جراحي باينة قد ما هي غارقة

تألمت كثير وباقا مع نفسي صادقة

نويت الخير فالغير والصدمة كانت حارقة

قلت ماعليش يمكن لقلوب مفارقة

جا الوقت لي الحيوط تبكي وما نبكيش

حان الأوان تقوليلي دمعي ومانبغيش

قولي شكون عاودتي علي وماعرفنيش

وشاف جبال الريف وماتفكرنيش

فيك نشوف يا مرايا سنين فاتو

قولي انت أشنو كاتشوفي في

انبض قلبي لحكاية بدقاته

واش اسمعتيه أولاّ ما حسيتي بيا

راني مشيت بين الوديان وبالليل تونست

وسط الغابة معا الدياب جريت وماحبست

عزفت نوطات حزينة ملي وحيدة جلست

قلت كلامي بعيوني وبالرموش همست

قدامك يا مراية فراسي نشوف

تستناي مني فوقاش بالسر نبوح

إنسانة رهيفة خالية من الخوف

لكن معتارفة بللي القلب مجروح

ف الماضي ديالي ذكريات وحكايات

قصص كثيرة كل وحدة كفاش بدات

قلبي بغاو يقتلوه وباقي ماماتش

وجناحي جرحوه والريشة بالدم بكات

مضرورة وإذا سقساو كاننفي

نشعل شموع التيقة وريح الخيانة تطفي

حكيت غير شوية من الهم اللي مخفي

واش نزيد يا مراية ولاّ لي قلت يكفي

سعيد فكري

أنهيت كتابة آخر كلماتي بهذه المذكرة الصغيرة، وضعت القلم جانبا وأنا أسمع خطوات أحدهم يقترب من باب الغرفة.

- ماذا تفعلين يا فاطمة الزهراء؟

- أقوم بالطقوس الأخيرة لإنهاء مذكرتي.

- أنهيت المذكرة؟ هل ستتوقفين عن الكتابة؟

- نعم

- ماذا عن الكورونا؟

- سيقدمون اللقاح قريبا، ما من شيء يقال بعد الذي قيل.

- إذن ستتوقفين؟

- نعم.

- إلى متى؟

- حتى إشعار آخر...

- حتى إشعـــــار آخـــــر... !!

استيقظت هذه المرة على صوت مزامير السيارات المتعالية في الأرجاء من غفوة الذاكرة التي تسللت إلي من باب حوار دار قبل سبع سنوات ولازال يتكرر داخلي. استقبلتنا تازة بجوها الغائم/الدافئ، وانتابتني في لحظة رغبة في أن أعانق المدينة بكل ما فيها، هنا فقط أتذوق طعما آخر للأكسجين، يتسلل عبر قصبتي الهوائية وينساب في هدوء لينعش رئتي، هنا فقط أشعر أني أتنفس، ولم أكن أدري وأنا في قمة انسجامي مع محيطي ما تخفيه لي الأيام القليلة القادمة، وكيف أن هذا الأكسجين المنعش سيصير من الصعب على الرئتين تحمله أو تقبله بضربة سوء تقدير أو بغفلة سعال.